مختارات من النصوص الأدبية

د / نادية أحمد مسعد
أستاذ الأدب و النقد
كلية الدراسات الأسلامية و العربية
جامعة الأزهر

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م





القسم الاول

طبيعة العلاقة بين الأدب والعلوم الانسانية

يرتبط الأدب بالعلوم الانسانية ارتباطا عميقا فكل منهما يسجل حياة أمته وما ينتابها من أحداث سياسـية واجتماعية وثقافية ويعد ارتباط كل منهما بالآخر ارتباط لزوم فالعلوم الانسانية تمـد الأدب بالحقائق والوقائع والتحليلات والتفسيرات التى يعتمد عليها المنشىء فى بناء الأثر الفنى •

واذا كانت العلوم الانسانية تصور الحياة بوقائعها فالأدب يحاكى هذه الحياة فيرمى الى المثالية والتهذيب وتعميق الصلة بين الفرد وأمته وتنمية مشاعر الولاء والوفاء والاجلال ويتجسد هذا بجلاء فى جميع فنون الأدب شعره ونثره (الوصف ، المدح ، الفخر ، الرثاء ، الغزل ، الزهد ، الشعر التعليمى) ، (الرواية ، القصة ، الأقصوصة ، المسرحية ، المقالة) ونشير الى أن الانسانية عرفت الفن قبل وقوفها على تسجيل أحداثها وذلك لأن الفن مرتبط بالوجدان الذى هو أصل من أصول التكوين البشرى •

وقد من الله جل شأنه على الانسان بالفن ليخفف به معـاناته النفسية وما يكابده من مشاق جسدية • واذا كانت منة الفن قاصرة على بعض البشر فان هؤلاء الخاصة يستطيعون ترجمة مشاعر أفراد أمتهم والتأثير فيهم حتى أننا نجد العامة يمتثلون بفنهم فيتغنـون به ويرونه كوسيلة من وسائل التسرى والمعرفة والتوجيه •

وسنتناول — باذن الله — بعض الفنون الأدبية مع نماذج تطبيقية تعكس أصول المجتمع وتياراته التى تؤثر تأثيرا مباشرا على سلوكيات الأفـراد :

١ — المقــــال :

ظهرت بعض خصائص المقال فى الأدب العربى منذ القرن الثانى الهجرى فى رسائل الأدباء وفصول البلغاء التى تتناول أشياء من الفكر والاجتماع والأدب والنقد وقد بلورت هذه الرسائل والفصول أحوال المجتمع وناقشتها بموضوعية وذاتية كرسائل الحسن البصرى الوعظية التى لعبت دورا هاما فى حياة الناس الاجتماعية والسياسية ، اعتمد فيها على الترغيب والترهيب حينا والوعد والوعيد حينا آخر وآثر خلالها الأسلوب الذى يخاطب الوجدان ويناجى القلب وخير مقال على هذا اللون الوعظى رسالته التى كتبها الى الخليفة عمر بن عبد العزيز فى صفة الامام العادل ومنها :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم .. والامام يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ... فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد إئتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال ، وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله ... » .

والرسالة تتصف بالاسلوب الواضح مع عمق المعنى وخصوبة الخيال وتعد من المقالات الاجتماعية والسياسية التى تهدف الى نشر الخلق واستقامة الأمور .

وقد تطورت صورة المقال طبقا لمتطلبات العصر وعلى وجه التحديد فى القرن التاسع عشر فقد أثرت فيه الصحافة تأثيرا مباشرا فأصبح يتناول موضوعات حيــة تتصل بقضايا المجتمع المختلفة وآثر فى أسلوبه الوضوح والبساطة لمخاطبته جموع الأمة .

عناصر المقـال :

يعتمد المقال الفنى على خصائص تشكل اطاره العام وهى :

المضـمون والشـكل :

ويتكون من الأفكار والآراء والتجارب المستفادة من البيئة الى جانب معارف وحقائق الحياة المتعددة فى مختلف النواحى (السياسية والاجتماعية والثقافية) • ويلتـزم الأديب فى عرض مادته بالترتيب المنطقى والتسلسل والوضوح وارتباط النتائج بالمقدمات ارتباطا جليا للمتذوق ويتصل بالمادة الشكل الذى يظهر به المقال بعد تبلور الأفكار والمعارف والآراء فى ذهـن الأديب ووجدانه ويتمثل فى الأسـاليب والأخيـلة •

أنـواع المقـال :

يتنوع المقال تبعا لطبيعة الموضوع الذى يتناوله المنشىء فهنـاك :

١ — المقـال الذاتى :

هو المعبر عن عواطف وانفعالات المنشىء تجاه خاطر ما أو فكرة أو مشهد أو حدث وتظهر شخصية المنشىء جليـة واضحة من خـلال علاجه لأفكاره وخواطره فى مقالته •

٢ — المقـال الاجتمـاعى :

يهتم فيه المنشىء بعلاج المشاكل الاجتماعية والعادات السـيئة والتقاليد البالية الضارة ويعمد الى التوجيه والاصلاح من خـلال العرض •

٣ — المقـال التـاريخى :

يتناول فيه الأديب عصرا مضى أو ثورة سلفت أو شخصية ولت

ويعتمد فى عرضه على حقائق التاريخ ورواياته فيعمد الى أمهات الكتب كتاريخ بغداد للبغدادى ، مروج الذهب للمسعودى ، البداية والنهـاية لابن كثير القرشى ٠

نصـــوص تطبيقيــة :

ومن المقالات الاجتماعية التى تتعرض لقضايا المجتمع مقـالة لمصطفى لطفى المنفلوطى بعنوان « **احترام المرأة** » **ومنها :**

« نعم ان الرجال قوامون على النســاء كما يقول الله تعـالى فى كتابه العزيز ولكن المرأة عماد الرجل وملاك أمره ، وسر حياته ، من صرخة الوضع الى أنة النزع ... انها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه أنها لم تخلق من أجل الرجل بل من أجل نفسها فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه ٠

يجب أن ينفس عنها قليلا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كيانا مستقلا وحياة ذاتية وانها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها لا أمام الرجل ٠ يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات ٠

وبعد فاما أن تكون المرأة مساوية للرجل فى عقله وادراكه أو أقل منه فان كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق والنظير للنظير وان كانت الأخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده أى أنه يعلمها ويدربها ويأخذ بيدها حتى يرفعها الى مستواه الذى هو فيه ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفى والعشير الكريم والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه ٠

التعليــق :

١ — تعرض المنفلوطى لقضية هامة تشكل طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وتبرز أهمية هذه القضية من كشف النقاب عن الحـق والواجب بينهما باعتبارهما نواة المجتمع الصالح ٠

٢ — بدأ الأديب مقالته الاجتماعية بتقـرير القوامة للرجـل تصديقا لما جاء فى القرآن الكريم ثم بين أن المرأة سر الحياة •

٣ — تعبيره بلفظة « عماد » يعكس عظم دور المرأة فى بنـاء المجتمع وأن صـلاحها ورجاحة تفكيرها يؤثر على اسـتقرار الرجل النفسى فالاطمئنان يجعله ينطلق فى ثقة يبنى ويعمر فى كل مجال •

وقد أجاد الأديب حين جمع بين اللفظتين (عماد ، رجل) لـما لهما من أبعاد نفسية وتربوية •

٤ — أشاد الأديب بما للمرأة من ذكاء ووعى وقد عبر بالفعـل المضارع ليدل على استمرار خصوبة تفكيرها •

٥ — دعوته بالمساواة لا تعد جديدة فقد بين القرآن الكريم حقها فى الحياة الكريمة وحسن ثوابها كالرجل : قال عز من قائل :

« •• أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى •• » •

(صدق الله العظيم)

٦ — يفيض النص بدعوة صادقة يدعو فيها الأديب الأب والزوج والأخ والابن لحسن معاشرة النساء •

ومن يرجع لخطبة الرسول الكريم (خطبة الوداع) يجد أن الأديب يجدد ما أوصى به سيد الخلق صلى الله عليه وسلم الرجال •

٧ — صور الأديب المنهج الذى يسلكه الرجل فشبهه بالمعـلم والوالد وهذا يضعف ما صرح به فى بداية النص (انها تفهم الحياة ••• كما يفهمها الرجل ••••) •

فكان الأحرى به أن يوضح اختلاف الطبائع وكيفية التقارب بينها وكأنه يرسم السبل التى تساعد على التفاهم • لتستمر الحياة وتنهض من منطلق استقرارهما المعنوى •

المقالة الثانية : بعنوان « الآداب العامة » لمصطفى لطفى المنفلوطى .

تعرض فى هذا الموضوع لقضية اجتماعية تعد من أخطر القضايا التى تهز كيان المجتمع وهى سلوكيات الشباب المتعلم تجاه الفتاة :

فكشف عن وسائل الشباب المتعددة للايقاع بالفتيات وتعجب من درجة استهتارهم التى تمعن فى افساد اخلاقهن ثم بين فى نصح وتوجيه طريق العودة للمنهج المستقيم فقال :

« اننى لا أفزع فى أمركم الى القانون ... ولا الى الدين فقد ضعف شأنه فى نفوسكم حتى هان أمره عليكم ولا الى آبائكم وأولياء أموركم فقد عجزوا عنكم وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم بل أفزع فى أمركم الى ضمائركم التى هى الأمل الباقى لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم فاصغوا الى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذى ترفعه اليكم وصوت الضمير أقوى من كل صوت فى العالم .

أصغوا اليه تسمعوه يقـول لكم : ان هؤلاء الفتيـات اللواتى لا تستحيون أن تمدوا اليهن أعينكم وأيديكم انما هن أخواتكم الحميمات يجمعكم واياهن أب واحد وهو النيل وأم واحدة وهى البلد ، وشرف الأخوة هو الملجأ الأمين لاعراض الأخوات وشرفهن .

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا ينغصها ذكرى الماضى ولا تختلط فى مخيلتها الصور والألوان ...

نحن فى حاجة الى أن نعلم بناتنا لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن الى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن ولا تزعجوهن بفضولكم واسفافكم ، فاننا لم نبعث بهن فى تلك السبيل ليفسـدن

شرفهن وعفتهن بل ليضفن الى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العـــلم والمعرفة أفسحوا الطريق لهن ، وأفسحوها للعاملة الخارجة فى طلب رزقها ••• ولا تكونوا حجر عثرة فى سبيل حرية المرأة فى ذهابها وجيئتها واضطرابها فى مذاهب الارض سعيا وراء رزقها وقضاء مصالحها ، فان أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون ، لأنكم تأبون عليها الا احدى الخطتين القاتلين اما الجهل الدائم أو السقوط العظيم •

الفضيلة الفضيلة أيها القوم ! فهى العزاء الوحيد •••••

التحليـــــــل :

١ — ناقش الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى فى مقالته الاجتماعية ظاهرة من الظواهر السلوكية السيئة التى تفتت عضد المجتمع •

٢ — اعتمد الأديب فى مناقشته الموضوعية على تنوع الاســلوب بين الخبر والانشـــاء •

٣ — دعوته للشرف والفضيلة دعوة محددة الخصائص وكان يجب أن تمتد لتصبح عامة وسلوكا يلتزم به الشباب فقوله « •• أب واحد وهو النيل وأم واحدة وهى البلد •• » أضعف من قيمة دعوته للفضيلة التى تعد انسانية عالمية •

٤ — عالج الأديب سمة نفسية يجب أن تتصف بها الفتاة بقوله « يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد •••• » فهذه السمة ان تحققت تستقر دعائم الاسرة وبالتالى ينعكس هذا على أمن المجتمع وسلامته •

٥ — أجاد الأديب فى تعبيره « ولا تختلط فى مخيلتها الصـــور والألوان » فقد أراد أن يوضح شدة اضطراب المرأة وما تعانيه من آلام نفسية فشبه هذا الاضطراب بهيئة من تتداخل أمام عينيه الصــــور

والألوان فلا يستطيع رؤيتها بصورة واضحة وينتج عن هذا الاضطراب التقدير الفاسد لكافة الأمور الحيوية التى تمس كيان الاسرة •

٦ — استطاع الأديب أن يعبر عن قلق الفتيات من سلوك الشباب المستهتر حين قال :

« لا تزعجوهن بفضولكم واسفافكم » •

فلفظة ازعاج بما فيها من رنين صوتى تنتقل حركة الفتاة حين تضطرب حركاتها خوفا •

٧ — كرر الأديب لفظة الفضيلة ليبين ما فيها من رقى وتمدن وتقدم الى جانب أن تكرارها يعكس على النفس شعور اليقظة وصحوة الضـــــمير •

٨ — النص فى مجمله دعوة للحياة الفاضلة التى تنبع من الشعور بالأمـــن والاســـتقرار •

٩ — الفضائل التى نص عليها الأديب فى مقالته وردت صريحة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال تعالى فى عقوبة من يفزع الأبـــرياء :

« بسم الله الرحمن الرحيم •• انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطـــع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الأخرة عذاب عظيم » ••

« صدق الله العظيم »

فقد صور القرآن الكريم جزاء من يعتدى على حرمات الله بالالفاظ المشددة (يقتلوا ، يصلبوا ، تقطع) امعانا فى تضـــعيف العقـــــوبة •

وقد بين القرآن الكريم أن المعتدين فى منزلة من يحارب الله ورسوله للاشعار بحتمية الخسران لهم .

واذا وقفنا عند بلاغة القرآن الكريم فى لفظة « يسعون .... » وجدنا أنها تكشف طبيعة هؤلاء الأشرار حين يحاولون نشر الفساد فى كل مجال بالحاح واصرار كما أنها تبين تدبيرهم للشر بكل وسـيلة ممكنـة .

خصائص مصطفى لطفى المنفلوطى الفنية فى المقالتين :

يبرز فى المقالتين بعض السمات الفنية التى تتصف بها مقالات مصطفى لطفى المنفلوطى الاجتماعية .

أولا — الشـكل :

ويقصد بالشكل الاطار العام الذى أعتمد عليه المنشىء فى بناء الأثر الفنى وقد امتاز الشكل فى المقالتين بما يأتى :

١ — التناسـق بين العبارات .

٢ — الوضوح فى اختيار الالفاظ التى تعكس المعنى بدقة وعمق .

٣ — سلاسة التعبير مع سلامة الاساليب ورقيها وبعدها عن العاميـة .

٤— البعد عن أساليب البديع التى قد تقصـد لذاتها مما يضر بهدف الأديب ورسالته .

ثانيـا — المضـمون :

ويقصد به المعنى الذى تفاعلت عناصره فى نفس المنشىء حتى اتضحت معالمها ووقف الأديب فيها على ما يتطلع لعلاجه من قضايا مجتمعه المختلفـة .

يتسم مضمون الكاتب بما يلى :

١ ـ عمق الصلة بين المعانى والأساليب •

٢ ـ صدق الانفعال فيما يعالجه من أفكار •

٣ ـ شيوع الموسيقى الداخلية التى تولدت من ايمانه برسالته الاجتماعية •

الاستاذ أحمد أمين

يعد الاستاذ أحمد أمين من عمالقة الفكر المصرى المعاصر فقد كان أديبا ولغويا ومحدثا ومؤرخا ومتصرفا وقد خلف للمكتبة العربية آثارا وتراثا عظيما ومن أشهر كتبه فجر الاسلام وضحاه وظهره .

وقد عالج فى كتاباته كثيرا من القضايا الاجتماعية علاجا موضوعيا اعتمد فيه على التحليل والتفسير والتعليل وربط النتائج بالاسباب والمقدمات فأستطاع بذلك سرعة التأثير على المتذوقين واقناعهم بما يؤمن به من قضايا أخلاقية اجتماعية تمس كيان المجتمع ومن مقالاته الهادفة مقالة بعنوان « الايمان ينبوع السعادة » يقول فيها :

« لولا الدين ما كانت سعادة ، ولا كانت الحياة قيمة ... بل نحن نرى أن آباءنا كانوا أسعد منا بايمانهم ، وشبابنا أشقى منهم بشكهم أو على الأقل بعدم اكتراثهم ، وان شئت فقارن بين أسرتين : أسرة أسست حياتها على الدين والتزمت به وأسرة أضاعت الدين ولم تلتفت اليه وأجبنى أى الاسرتين أسعد ؟ انى اعتقد أن أكبر سبب لشقاء الأسر وجود أبناء وبنات فيها لا يرعون الله فى تصرفهم وإنما يرعون هواهم وملذاتهم فهم يركبون رؤوسهم ويروون رغباتهم من غير وازع دينى يزعهم أو نظرة فى العواقب تردعهم فاذا فشا الدين فى أسرة فشت فيها السعادة وخاصة اذا كان دينا راقيا تجرد عن الخرافات والأوهام وتدعم بالعلم وحكم أفرادها دينهم فى سلوكهم .

ان أهم ركن فى السعادة راحة البال ... والدين أكبر دعامة لراحة البال ، اذ يظهر أنه من طبيعة النفس الانسانية أن تشعر بوجود اله تعتمد عليه ، فاذا لم يكن ذلك قلقت واضطربت لأنها خالفت طبيعتها ولذلك نجد أكثر الملحدين يعيشون عيشة مضطربة ...

وهذه هى السعادة فى الحقيقة .. فليست السعادة فى كثرة المال

ولا عظم الجاه ، انما هى فى أنفسنا وفى داخل قلوبنا وشىء آخر وهو أن مزية الدين الايمان باليوم الآخر ، فهو بذلك يضم حياة أبدية الى حياته القصيرة الدنيوية وذلك من غير شك يدعوه الى أن يفكر فيما يعمل لاعتقاده فى الجزاء العادل ان لم ينله فى الدنيا ناله فى الآخرة .

وفى مقالة أخرى بعنوان « **لمـــاذا كان الدين** » يقول الاستاذ أحمـــد أمـــين :

« ان التدين من طبيعة الانسان كما أن العقل من طبيعته ولهذا لازم التدين الانسان منذ عرف تاريخه فى بدوه وحضره فى جميع أقطاره وأقاليمه فى رقيه وانحطاطه فمهما اختلفت تفاصيل الدين ومهما تعددت المعابد والشعائر فالانسان هو الانسان لابد له من دين .... » .

والدين يكون عنصرا هاما من عناصر المدنية قديمها وحديثها ويؤثر أثر كبيرا فى حركات كل أمة سواء كانت حركات سياسية أو اجتماعية حتى فى المدينة الحديثة مع ايمانهم التام بالعلم وانطباعها بطابعه لا يزال للدين الأثر البالغ فى منازعها السياسية والاجتماعية ..

لقد كان الدين سببا فى قوة الرابطة بين الجماعة المعتنقة دينا واحدا فكل جماعة تدين بدين يؤلف بينها ويوفق بين أفرادها ويشعرهم بالوحدة ويكون أساسا بينهم للترابط والتعاون وهذا ولا شك دعامة من دعائم الرقى فى المجتمعات .

ثم ان الدين أهم باعث على الاخلاق فهو يدعو الى الفضـــائل دعوة حارة ممزوجة بالعواطف دعوة مؤسسة على حب الله قد يدعو العقل والفلسفة والعلم الى الفضيلة من حيث هى حق ومن حيث هى نافعة ولكن دعوة الدين اليها أقوى لأنه يسبغ عليها من روحانياته ويربطها بالثواب فى الدنيا والآخرة ويربط بينها وبين الضـــمير ... الدين هو الذى أنشأ المعابد تهتز فيها قلوب الناس وتتحرك عواطفهم

فى لذة واشتياق الى هذا الاله الذى لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصـــار .....

والدين هو الذى حرك العواطف لانشاء معاهد البر والاحســـان والملاجىء والمستشفيات فخفف بؤس البائسين ... والدين هو الذى حرك نفوس الأدباء والشعراء فأنتجوا لنا روائع الأدب الصـــوفى والشعر الدينى والابتهالات التى تنبض بالعواطف وتســـيل عذوبة ورقـــة .

والدين كان عماد التربية والتعليم بفتح المدارس والجامعـــات ثم كانت الدراسة الدينية باعثة على غيرها من الدراســـات فالدين الاسلامى خلف ثروة كبيرة فى التأليف وبعث على تدوين كثير من العـــلوم ...

والدين هو الذى يتجلى فى أسمى مظاهر الانسانية ولا ســـيما فى أوقات الشدائد من عطف على الفقراء ومواساة للجرحى والمنكوبين .

وبعد فالدين نعمة على الفرد والمجتمع هو راحة للنفس لأنه يساير طبيعتها وهو نعمة على المجتمع الانسانى لأنه يوثق روابطه ويحيى عواطفه ويوجهه نحو الخير وخير الأديان ما سما بالعاطفة وأوسع المجال للعقل وبنيت تعليمه على خير الفرد وخير الانسانية .

التحليـــل :

١ — عالج المفكر الاسلامى الاستاذ أحمد أمـــين فى المقالتين قضية تتصل بتكوين الوجدان الانسانى اتصالا مباشرا وتعمل على توجيه الوجهة التى تحفظ المجتمع توازنه المعنوى والمادى وهى قضية « الدين والتدين » .

٢ — بين الأديب أن التدين ضرورة من ضرورات الحياة لأنه يساعد على الاستقرار والرقى .

٣ — ربط الكاتب بين السعادة وراحة البال وجعل الدين منبعهما .

٤ — بين الأديب أن التدين يدفع الى التمسك بالفضائل .

٥ — ناقش المفكر ارتباط الدين بحركة الحياة الاجتماعية والسياسية .

٦ — كشف عن الترابط بين الجماعة التى تدين بدين واحد .

٧ — عدد الأديب ما للدين من فضائل ومزايا نفسية تدفع أصحابه الى البناء والتعمير لاسعاد البشرية .

الخصائص الفنية للمقالتين :

أولا — الشكل :

١ — اتسمت ألفاظ الاستاذ أحمد أمين بالدقة والوضوح وارتباط بعضها ببعض فى صياغة فنية متينة .

٢ — التوافق بين العبارات والمعانى الجزئية والكلية .

٣ — تحقق التجانس الصوتى بين الكلمات والحروف .

٤ — البعد عن التكلف والاغراق فى الصنعة .

٥ — تكرار بعض الالفاظ والعبارات لاقناع المتذوق بفكرته مثل « الدين يكون عنصرا .. الدين سببا فى قوة الرابطة ، الدين أهم باعث على الأخلاق ، الدين هو الذى أنشأ المعابد ، الدين هو الذى حرك العواطف » .

وقد يذهب التكرار حرارة الفكرة وصدقها إلا أن الاستاذ أحمد

أمين استطاع بحسن عرضه وعمق اقتناعه أن يتخذ من التكرار وسيلة لغاية سامية هى أن الدين بكل خصائصه المعنوية والمادية الســـراج المنير والهداية للنفس البشرية الضالة .

المضـــــمون :

اتسم المضمون بما يلى :

١ ـــ صدق العاطفة وعمقها مما أثر بالتالى على حسن الصياغة .

٢ ـــ انتشار الموسيقى الداخلية التى ساعد على توافرها ايمان الكاتب ما يعالجه من أفكار تحمل بين طياتها المثل العليا .

أحـــاديث نبـــوية

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعــاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يـــده » .

.. ..

يوضح الحديث الشريف المنهج الذى يتحتم على أفراد المجتمع الالتزام به حتى تتوفر لهم ســبل الحياة الفاضـــلة ويبرز العنصر الاساسى فى ضرورة العمل واستمراره .

فمن المعروف أن طرق المال كثيرة كالوراثة والهبة والصـــدقة والعمل الادارى ... الــخ وخير المال ما جاء نتيجة للعمل الشخصى فالعمل يكسب صاحبه الحيوية والنشاط والثقة فى النفس فيشعر بأهمية وجودة مما يؤثر على حالته البدنية والنفسية ولقد اتخذ الرســـول صلى الله عليه وسلم النبى داود مثلا يحتذى به فى الالتزام والاستمرار فى العمل فقد كان يأكل من عمل يده اذ كان يصنع الدروع الحربيـــة مع أنه كان صاحب ملك وسلطان اذ سخر الله له الجبال والطـــير والحديد وفيه يقول تعالى « يا داود إن جعلناك خليفة فى الأرض » .

فالحديث الشريف يرغبنا فى العمل ويبغض الينا الاعتماد على الثروة أو المال الذى يأتى من الوراثة وغيرها .

التصـــوير الأدبى والبـــلاغى :

صور الرسول صلى الله عليه وسلم لأفراد أمته أهمية العمل فجسده فى تعبيره البلاغى « ما أكل .... » وليس الغاية من العمل الطعام وانما المقصود الثمرة الطيبة التى تعود بالنفع على الشخص

وعلى أفراد أمته وقد عبر الرسول الكريم باللفظة « أكل » لأنهـا الوسيلة الحسية المرئية لدى الخاصة والعامة .

ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى الفصاحة والبلاغة والبيان فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وأمده بوحى من عنده وألهمه السداد والرشاد وأنزل عليه الحكمة والكتاب وأتم عليه نعمته فجاء حديثة نورا يهدى الى سواء السبيل ونبراسا يضىء طريق النجاة ويحرر العقول ويقيم الشريعة على أسس واضـحة مبنية على التدليل والمنطق الذى يقنع العقل البشرى بما يريد بثه فى النفس البشرية من مثل وفضائل ولذلك وجدنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يلزمنا بالعمل مهما كان لدينا من أموال ويبنى حجته على ما يقنع أفراد أمته بأن نبى الله داود كان يعمل رغم سلطانه .

والحديث السابق يعكس دقة بيان رسولنا الكريم وعمقه وبعـد أثره فى تكوين وجدان المسلم فتوضيح الرسول لأهمية العمل وإلزام كل مسلم به مهما كان بسيطا يثمر ثمارا اجتماعية طيبة حيث يتحضر المجتمع بنشاط أفراده وحيويتهم ويقضى على البطالة مما يؤثر بالتالى على رقى الشعور الوجدانى واقباله على الحياة بأمل وبشر .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التى تبنى أعمـدة المجتمع وتحافظ عليه قوله « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

والحديث الشريف يرمى الى حصر انتشار الوباء وحماية المناطق السالمة وهو المعروف الآن بالعزل الصحى والذى تلتزم به دول الغرب فى العصر الحديث وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف بالطب الوقائى .

التصـــوير الأدبى والبيانى :

السامع أو القارىء لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقف على أبعاد معنوية واجتماعية فقد فرض على أبناء الأمة ضرورة الالتزام بقاعدة صحية لا تقبل المناقشة فبدأ بأداة الشرط « إذا » فربط بين الفعل وضرورة تنفيذ الجواب .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه ببلاغته لم يفصل أســباب الالتزام بل نهى عن سلوك قد يأتى بلا روية ونهى الرسول فى التعبير (لا تدخل) يتفق بلاغة مع اذا سمعتم . فقد يسمع المسلمون بوباء فى منطقة ما وسماعهم بهذا الخبر يحتمل الكذب أو الصــدق ورغم الاحتمال فقد نهاهم معلم البشرية بدخول المنطقة وفى أمره هذا قطع للتوتر النفسى الذى يصاب به الفرد اذا كانت له مصلحة أو تجارة فى تلك المنطقة وجاء النهى فى قوله صلوات الله وسلامه عليه « واذا وقع بأرض أنتم بها فلا تخرجوا ... » لأن الوقوع بين حدوث الأمر .

الى الأغنيـــاء

لأحمـد حسن الزيات

« أيهـا الأغنيـاء : لقد جربتم بذل المال فى اللهو وقتل العمر فى العبث وفقد الصحة فى المجون فهل كسبتم من وراء ذلك مجدا أو وجدتم فى عواقبه سعادة ؟ جربوا أن تمسحوا دمعة على خد حزين أو تنفسوا كربة عن قلب بائس أو تسهلوا طلب العلم لفقير أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع فى صـدوركم الرخاء ويرتفع بقلوبكم الاخاء وتنعم نفوسكم فى الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح ، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والعلل والأخرى تدوم بدوام الروح فى الأرض وتخلد بخلودها فى السماء » .

التعليـــق :

المقالة السابقة من المقالات الاجتماعية التى ترسم للاغنيـاء المنهج الطبيعى الذى يجب عليهم الالتزام به وقد اعتمد الأديب فى علاج فكرته على ما يلى :

١ ــ المناقشة الموضوعية للفكرة وتحليلها تحليلا منطقيا .

٢ ــ عرض الفكرة بصياغة فنية تجمع بين العمق والوضوح .

٣ ــ البعد عن التكلف والاغراق فى الصنعة .

مع توافر خصائص الموسيقى اللفظية والداخلية والنص يكشف عن حدوث اضطراب اجتماعى فى بيئة المنشىء مما دعاه الى دعوته التى أراد منها الصحوة الاجتماعية .

والواقع أن الاسلام وضع الدعائم التى تحفـظ للامة توازنها الوجدانى والاجتماعى .

ففى القرآن الكريم أوصى الله جل شأنه بالمحتاج وألزم القادر على مد يد المعونة له حتى يتكامل البناء المادى والمعنوى للامة الاسلامية وتصبح جديرة بقوله عز من قائل « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

واذا كان القرآن الكريم رسم الصورة المثلى للمجتمع الاسلامى فان السنة الشريفة بينت الكيفية التى نصل بها الى هذه الصورة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ... » وقوله « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ... » .

وكل ما رسمه الأديب وناقشه فى موضوعية وتمنى وجوده بين أفراد المجتمع ورأى ضرورة التزام الأغنياء استقى ينابيعه من فيض القرآن الكريم والسنة الشريفة .

المذاهب الأدبية

تعد المذاهب الأدبية تعبيرا واضحا عن ظروف وملابسات المجتمع من الوجهة الاجتماعية والسياسية والنفسية وقد نمت هذه المذاهب فى الغرب ومنها :

١ — المذهب الكلاسيكى :

نشأ عند الأغريق وازدهر عند الرومان وانتشرت خصائصه فى أوربا بالتحديد فى عصر نهضتها .

ولفظة كلاسيك مشتقة من كلاسيوسى اللاتينية التى تعنى الطبقة العليا من الشعب وهم جماعة الأشراف الأثرياء وقد تشبهت بهذه الطبقة الاجتماعية المترفة طبقة الأدباء والشعراء الذين صعدوا بأدبهم

وفنهم الى منزلة رفيعة فى المجتمع ومن هنا أصبحت لفظة الكلاسيكى تدل على ما يحتذى من شعر رائع أو أدب رفيع ويمتاز انتاجهم بقوة التفكير وسمو المعانى وروعة الخيال وجزالة الاسلوب .

٢ — المذهب الرمـــزى :

ظهرت دعوته فى مظهر الثورة على التقاليد الشعرية والمذاهب الأدبية وكان محاولة جديدة للافصاح عن العواطف المكبوتة فى أعماق النفس الانسانية مع الاستعانة فى هذا بجرس الالفاظ وايقاع الوزن وتركيب الجمل .

والأدب الرمزى يقتضى التأمل والعمق لتفهم موضوعه وتذوق فنه والفناء فى فكرته التى خلقها الشاعر والاهتمام بتجارب العقـــل الباطن والميل الى الغموض والابهام والتجارب الموضوعية الموزعة بين الحلم واليقظة وقد عكف الرمزيون على الغوص فى أعماق النفــس الانسانية ومعالجة الحياة الباطنية للانسان لا على طريقة الكلاسيكيين الذين كانوا يبحثون فى النفس معتمدين على العقل وحده بل جعلوا أساس عملهم الفنى التغلغل فى أعماق العقل الباطن فكان عملهم قائما على التوافق بين المادة المحسوسة والفكرة المتخيلة وقد عنيت الرمزية بتسجيل المشاعر والتأملات الفردية .

نشأ المذهب الرمزى فى فرنسا ولم يلبث أن امتد الى الأقطار الأوربية الأخرى على أن الرمزية كانت قد ظهرت بين حين وآخر كلما حاول شاعر أن يترجم عن مشاعره الخفية بالرموز وقد برزت بوجه خاص فى أدب الصوفية .

القصـــة

تعد القصة من الفنون الأدبية الحية وقد ظهرت عناصرها فى أدبنا العربى منذ العصر الجاهلى ففى الأدب الجاهلى قصص يروى أيام العرب وحروبهم وفى القرآن الكريم قصص مختلف عن الانبياء والرسل والأمم البائدة • وقد نمت القصة فى العصر العباسى حيث ترجم كتاب كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة •

وقد اتخذت القصص الأدبية فى العصور الأدبية الاولى العامية وسيلة للتعبير باستثناء المقامات الى أن اتصل الأدب العربى بالأدب الاوربى فى العصر الحديث حاول كثير من الادباء أن يترجموا بعض الأعمال القصصية الاوربية وكان رفاعة الطهطاوى رائد هذه الحركة فقد ترجم « مغامرات تليماك » وقد حاول فى ترجمته الربط بين طبيعة الأدب المسجوع وبين الروح المصرية •

عنـاصر القصـــة :

تعتمد القصة على عناصر تتكون من المادة الأولية التى تشكل العمل القصصى الذى يقوم بدوره على :

الحـــادثة :

وهى مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة •

الســـرد :

الســـرد هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة الى صورة لغوية •

البنـــاء :

يقوم المنشىء باختيار وقائع بذاتها يؤلـــف بينها ويكون منها البنـــاء الكامل للحادثة •

والقصة بأنواعها الاجتماعية والتاريخية والدينية والنفسية الأسطورية تبرز فكرة فى نطاق زمانى ومكانى معهود لدى المنشىء من خلال قراءته أو من تجربته الذاتية .

المسرحيـــة :

كون الانسان لنفسه منذ أقدم العصور معتقداته الدينية الخاصة وكان سعيه ووصوله الى هذه المعتقدات نتيجة لجهده الذى يبذله فى محاولته تفهم نفسه وعالمه ومصيره المقدر له بلغة يستطيع هو أن يفهمها وكان كل ذلك نتيجة لمحاولة رسم الطريق الذى يهدد الفرد والجماعة الى الاتجاه الصحيح ويحميهم من قوى الشر فلما أطمأن الانسان الى طعامه ومأواه واحتمى من أعدائه ذهب يبحث عن بعض الأمور التى تعد أقل الحاجا فكانت الفنون الجميلة ومنها فن المسرح .

عنـاصر المسرحيـة :

١ — الحـــوار :

هو المظهر المادى للمسرحية . أما المظهر المعنوى لها فهو الصراع وهو لا يقل أهمية بالنسبة للمسرحية عن الحوار والصورة العامة التى يتمثل فيها الصراع هى صورة الخير والشر ومن هنا يرتبط المسرح بالحياة أشد ارتباط .

فالحوار والصراع أعظم ما يميز المسرحية من الخصائص الفنية ويرتبط البناء الفنى للمسرحية بالزمان والمكان فالمسرح حدود زمنية وحدود مكانية لهما أثرهما فى اختيار المواقف والأحداث .

٢ — الحـــركة :

وهى من عناصر المسرحية الهامة والحركة تتشكل فى أذهاننا فى

المسرحية المقروءة أما المسرحية التى تمثل فيظهر عنصر الحركة بصورة عضوية وذهنية معا •

والحيوية فى الحوار والصدق فى الصراع يرتبطان بما يصاحب الاداء من حركة عضوية أو ذهنية •

دراســة تطبيقيــة :

١ ــ مصــرع كليــوباترا :

كان موضوع كليوباترا من الموضوعات التى تداولتها أقلام كتاب المسرح منذ عهد النهضة الاوربية ففى الأدب الفرنسى يستطيع الباحث أن يعثر على سلسلة من المسرحيات التى تتناول بعض نواحى هذه الشخصية شبه الاسطورية منهم جــودل ، فيكتوريان ، شكسبير ، أحمــد شــوقى •

وقد أطلع الأخير على ما يلى :

١ ــ قراءة بعض الكتب الفرنسية أو العربية التى تناولت تاريخ مصر أو تاريخ الدول الشرقية فى العصر القديم •

٢ ــ مسرحية أنطونيو وكليوباترا لشكسبير •

٣ ــ مشاعره الذاتية وهدفه الذى رمى اليه عند كتابته وهو رد اعتبار كليوباترا كملكة مصرية •

نقــد المسرحيــة :

١ ــ حرص شوقى عند كتابته المسرحية على اعجاب الجماهير فحاول أن يرضى مشاعرها الوطنية ومع ذلك فقد أخطأ السبيل وذلك لأنه وان يكون قد تحرر فى الفترة الاخيرة من حياته الى حد ما من

تبعيته للسراى والاسرة المالكة وأخذ يتقرب الى الشعب المصرى نسى أن كليوباترا يونانية الأصل وسليلة الغزاة الذين ظلوا يستعلون على المصريين حتى أنهم كانوا يحرمون الزواج بين المصريين واليونانين •

٢ — صور شوقى الشعب المصرى سلبيا منساقا من السهل تغليله وذلك فى شخصية حابى الذى نسى تمرده على كليوباترا عندما منحته وعشيقته ضيعة بصعيد مصر •

٣ — اضطرب شوقى فى التحليل الوجدانى لشخصيات المسرحية مما أثر على تأثر المتذوقين •

٤ — التزم شوقى بأصول الفن المسرحى •

خطبــة الــوداع

قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، •••• أوصيكم عباد الله بتقوى الله ••••

أما بعد •••• اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا •••• ايها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام •

أيها النـــاس : ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق فلكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم الا باذنكم •• انما النساء عندكم عوان •••

أيها الناس : انما المؤمنون أخوة ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه الا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم أشهد • فلا ترجعن بعــدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض •••

أيها الناس إن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ••••

التحليـــــــل :

عنـــدما نستمتع بأرواحنا ووجداننا بأحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يتبادر الى أذهاننا قوله عز وجل فى وصفه وإنك لعلى خلق عظيم وقوله عز من قائل وما ينطق عن الهوى ويترتب على تلك المفاهيم والاوصاف القرآنية إننا نحن البشر ازاء مخلوق من مخلوقات الله أفرده عز وجل بصفات معنوية ســـامية فطهره ومنحه نورانيــة وشفافية وجعله منارا يهدى الضالين وينير لهم ظلمات الطريق المعنوية

والمادية ولذلك اصطفاه الله تعالى لتبليغ رسالته السماوية القائمة على التوحيد الى جانب تعليم البشرية الأسس التشريعية التى تضمن لهم الاستقرار والسعادة وبعد أن أتم الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة وذلك حينما أنزل الله عليه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .. » .

أدرك الانتهاء من الرسالة التى أرسله الله لها ولذلك اجتمع بالمسلمين فى يوم عرفة المبارك ليوصيهم جميعا بالتمسك بأهداب الدين جمعهم كأب رحيم رؤوف يتمنى دوام السعادة والاستقرار لأبنائه .

١ — بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظة الحمد والمقصود أنه يحمد الله على إتمامه مهام العمل الذى وكل له على الوجه الذى ارتضاه الله من الناحية المادية والمعنوية .

٢ — كرر لفظة نحمده بصيغة الجماعة ليعلمنا وجوب الحمد فى كافة أمورنا وكأنه صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا المسلك الضرورى لسير حياتنا .

وقد صور المسلك والمنهج الموضوعى للمسلم فالحمد لنعم الله المتعددة الحمد له سبحانه الذى منحنا الطاقة القادرة على الابداع والاستمرار الحمد له سبحانه على تيسير وسائل المعيشة لنا ويلى الحمد **الاستعانة** والاستعانة جاءت بصيغة الجمع أيضا نستعينه وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم بلسان أمته جميعها فيرجو لهم الله بأن يعينهم فهو سبحانه خير معين . وبعد الاستعانة الاستغفار من الذنوب ثم التوبة التى تعنى عدم الرجوع للذنوب . وأخيرا مرحلة الاستعاذة من الشرور النفسية ومن سيئات الأعمال .

وجاءت لفظة (الشرور) بصيغة الجمع ليبين لنا الرسول الكريم أن الشرور النفسية متعددة ومركبة .

ثم قال الرسول : « أوصيكم » ليشعر المسلمين بلزوم تنفيـــذ الشريعة والتمسك بتعاليم الاسلام •

أما لفظة أبيـــن فقد جاءت لتوكيد وتوضيح ما فى القرآن الكريم والسنة الشريفة •

جاء التعبير « إن دماءكم وأموالكم » مضافا اليه الضمير « كم » وكأنه صلوات الله وسلامه عليه يؤكد للمسلمين انهم وحدة مادية ومعنوية أما تعبيره صلى الله عليه وسلم بلفظة « يوطئن » فهى ترمى الى جانب معناها المادى ما للزوج من حقوق معنوية أما تعبيره صلى الله عليه وسلم « انما المؤمنون أخـــوة ••• » فبين فى لفظة الأخوة وجـــوب التراحم والتعاطف والتكامل •

وقد عبر بيانه الفصيح عن انتشار الاضطراب وسفك الدماء عند ترك تعاليم الاسلام بالعبارة « فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ••• » وقد جاء الفعل المضارع « ترجعن » ، « يضرب » ليبين استمرار التطاحن والتناوش بين المسلمين اذا تركوا تعاليم القـــرآن الكريم والسنة الشريفة •

وتعبيره صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من تراب » يتضمن عمقا يكشف حقيقة لاوجود والأصل البشرى •

صـــــور أدبيـــة

من وحى القــرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله الذى أنزله على نبيه المختار ســيدنا محمد ليرسم للنـــاس طريق الهدى والرشاد حتى يتحقق للمجتمع الاسلامى الرقى الوجدانى والاجتماعى والفكرى وقد عالج القــرآن الكريم القضايا البشرية علاجا موضوعيا وكانت مادته اللغة العربيـــة الفصحى الى تعد من أرقى اللغات الانسانية لما تتضمنه من فصـــاحة وبيان وخصوبة خيالية وتصويرية لا تتوافر فى لغات وقد برزت الصورة الأدبية والبلاغية بعمق فى الأيات التى تصور جزاء أهل الجنة وعقاب أهل النـــار :

قال تعالى فى ســـورة الزمر :

بســـم الله الرحمن الرحيـــم :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ••• وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ••• وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد الله الذى صدقنا وعده ••• وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيـــل الحمد لله رب العالمين •••• » •

« صدق الله العظيم »

المعـــانى اللغـــوية :

١ — نفخ فى الصور : أى نفخ اسرافيل فى البوق يوم القيامة •

٢ — فصعق : أى خر ميتا أو ••

٣ — سيق الذين كفروا أى سيق الكفرة الى نار جهنم جماعات •

٤ — وسيق الذين إتقوا : أى سيق الأبرار للجنة جماعات راكبين على النجائب •

٥ — طبتم : أى طهرتم •

التعليـــــق :

صور القرآن الكريم فى سورة الزمر المصير الذى ينتظر كل من أهل النار وأهل الجنة وبدأت الآيات الكريمة بتصوير المنهج الموضوعى تصويرا يعتمد على الترتيب المنطقى الأولى مراحل البعث وهى :

١ — النفخ فى البوق وما يترتب على ذلك الصوت المنبعث من أثر على عديد من المخلوقات ولفظة صعق تنقل لقارىء القــرآن الكريم وسامعه الصورة الشكلية والصوتية فمنهم من يسقط ميتا ومنهم من يغشى عليه من هول الصدمة وذلك وقوفا على الرؤية البصرية والدرجة الصــوتية •

٢ — النفخ فى الصور مرة أخرى كأداة تنبيه لهذه المخلوقات التى أصيبت بالموت أو الاغماء من أثر الصــدمة العنيفة الشــكلية والصوتية ، والنفخة الثانية يترتب عليها القيام للمخلوقات الســابقة لتنظر وتتبصر حقيقة الأمر •

٣ — بعد معرفة كل من الفريقين مكانه والانتهاء من هذه المرحلة الحسابية الفعلية يستمتع المؤمنون برؤية الملائكة الحافين من حــول العرش يسبحون الرحمن وينزهونه ولعل أعظم تسبيح يتبلور فى حمده تعالى على لسان الملائكة والمؤمنون وكأننا فى حياتنا الدنيا حين نتصور المنظر ونستحضر بآذاننا أصوات الحمد نربط بين هذا المشهد الشكلى وبين الطواف حول الكعبة المشرفة وتكبيرات العيد •

المـوازنة الأدبيـة

الموازنات الأدبية قديمة قدم الشعر العربى الا أنها كانت موازنة ساذجة تصدر احكاما جزئية خالية من التعليل وقد ظل التفاضـل موضع اختلاف بين الادباء والنقاد والعلماء الى أن انتهوا الى فكرة الطبقات على يد ابن سلام الجمحى فطبقاته أقيمت أساسا كنوع من المـوازنة الفنية بين الشعراء وابراز ملامح الشعر الجيد .

ثم توالت المؤلفات التى تتخذ الموازنة بين الشعراء منهجا لها ككتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وقد ظهرت روح الموازنة للآمـدى الذى يعد من أعظم الكتب النقدية التى اتخذت الموازنة سبيلا للمفاضلة بين شاعرين إحتدت الخصومة بينهما كما ظهرت روح الموازنة واضحة فى كتاب الوساطة لعبد العزيز الجرجانى الذى وازن بين المتبنى وخصومه من الشعراء وعلى ذلك فبذور الموازنة المنهجية وجدت جلية فى تراثنا النقدى القديم وقد وقف المحدثون على أهميتها فى العصر الحديث فكتب أ. زكى مبارك كتابه الموازنة بين الشعراء أجمل فيه ما يجب على من يقوم بالموازنة فى عدة نقاط أبرزها :

١ — ذكر حياة من نوازن بينهما من الشعراء وتعيين ما فى حياة كل منهما من صنوف الشدة أو الرخاء .

٢ — ذكر الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتـلال .

٣ — تحديد الصفات التى اشترك فيها كل من الأديبين أو الشـاعرين .

على أن الموازنة من دعائم ترقية الحاسة الفنية وتغذية الذوق وقد أكد ذلك علماء النفس .

دراســـة تطبيقيـــة :

قال البوصيرى فى مدح المصطفى صلوات الله عليه :

تتبـــاهى بك العصــــــور وتســـمو
بك عليـــاء بعـــدها عليـــــاء

. . . .

وتوالت بشـــرى الهـــواتف أن قـــد
ولـــد المصـــطفى وحـــق الهنـــاء

قال أحمد شـــوقى :

بك بشـــر الله الســـماء فزينـــت
وتضـــوعت مســـكا بك الغبـــراء

يـــوم يتيـــه على الزمـــان صـــباحه
ومســـاؤه بمحمـــد وضـــاء

التعليـــــق :

١ — وصف الشاعر ان مكانة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بمشاعر وجدانية صادقة تفيض بأسمى معانى الحب والتقـدير والاعتراف بمكانته فى قلوب المخلوقات جميعها .

فقد بين البوصيرى سمو مكانته ورفعتها على مر العصور فقـال « تتباهى » وقد عبر بالفعل المضارع ليبين وجوب استمرار الرفعـة والسمو والمتذوق للفظة « تتباهى » يقف على تآلف حروفها وتناسقها مع تمتعها برنين موسيقى يشعر بالنشوة والارتفاع وقد أجاد حين جسد الزمان فجعله كهيئة انسان يشعر بما لديه من محاسن فيتباهى بهـا والتباهى فى الناحية الشكلية يجسد الضياء على ملامح الوجه والسرور الوجدانى الذى تنعكس آثاره على سلوك هذا الانسان فكلمة « تتباهى »

جسدت الهيئة الشكلية المنعكسة من الحالة الوجدانية وأجاد الشاعر حين أتى بلفظة « تسمو » التى تجعل المتصور يحلق فى أعلى الآفاق أما بيت شوقى المقابل للبوصيرى فهو :

بك بشـــــر الله .. ..

وقد بين شوقى النشوة التى حلت بالسماء والأرض فبين تزين السماء عندما بشرت بمولد المصطفى وانتشار روائح الطيب فى الأرض فاعتمد فى تجسيد آثار مولده على الماديات التى يستطيع تصورها كل انسان .

أما بيت البوصيرى فصور الوضع المعنوى .

وهو أرقى وأعمق وجدانيا وأبعد تأثيرا فى المتذوق حيث جعـــل العصور بما فيها من ماديات ومعنويات والسموات بعضها فوق بعض تتباهى بمولد صلى الله عليه وسلم .

٢ — أما البيت الثانى فصور به الشاعران لحظة مولده صلى الله عليه وسلم على الأرض الا أن أحمد شوقى أجاد حيث جسد هيئة يوم مولده وما انتابه من سرور متصل فى الصباح والمساء وقد جعـــل هذا اليوم يتيه على الزمان كله فجمع فى لفظة التيه معنى النشـــوة والبشرى .

الأســلوب والتعبير فى القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله أنزله على رسوله المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليرسم للناس طريق الهدى والرشاد حتى يتحقق للمجتمع الاسلامى الرقى الوجدانى والاجتماعى والفكرى وقد عالــج القرآن الكريم القضايا البشرية علاجا موضوعياً وكانت مادته العلاجية اللغة العربية التى تعد أرقى اللغات الانسانية لما تتضمنه من فصاحة بيان وخصوبة خيالية وتصويرية لا تتوافر فى لغات أخرى وقد برزت الصور البلاغية والأدبية بعمق فى الآيات التى تصور جزاء أهل الجنة وعقاب أهل النــار •

قال تعالى فى سورة الانســان :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا • عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام •• انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدورها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهــم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا واذا رأيت ثم •• رأيت نعيما وملكا كبيرا عاليهم ثياب سندسى خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ••• » •

« صدق الله العظيم »

اللغــويات :

كافور : الكافور من أنواع الطيب •

يفجرونها تفجيرا : أى يجرونها حيث شاءوا .

يوفون بالنذر : أى يوفون بما قطعوه على أنفسهم .

فوقاهم : أى حماهم .

زمهريرا : أى لا يجدون فيها حرا ولا بردا .

وذللت قطوفها تذليلا : أى أدنيت ثمارها منهم .

الزنجبيل : نبات يمزج به الشراب فيكسبه رائحة طيبة .

السلسبيل : عين فى الجنة .

السندسى : الحرير الرقيـــق .

الاستبرق : نوع من الحرير السميك .

التعليـــق الأدبى والبـــلاغى :

١ — بينت الآيات الكريمة طبيعة النعيم الذى ينتظر المؤمنين الصالحين من ذكر وأنثى وأول نعيم يتمتعون به شراب منقى مصفى أعدلهم يمتاز بطيب الرائحة وقد شبهت رائحته برائحة الكافور لأنه من مدركات البشر الحسية التى يعشقون رائحتهـــا والتعبير بالمضـــارع (يشربون — يشرب) يدل على استمرار تمتعهم بهذا الشراب وعدم انقطاعه ولفظة (عينا) بينت للمسلمين أن هذا الشراب الذى يعـــد مصدرا من مصادر سعادتهم يفيض فى أى وقت يرغبون فقد ســـخر الله لهم العين لهذا الغرض وقد بدأت الآيات بحرف التوكيد (ان) أما الاسلوب القرآنى كان فقد جاء بالماضى للتأكيد بأن الجزاء تم اعداده .

٢ — ربط القرآن الكريم بين لفظ الجلالة وبين عباد تشريفا للمسلمين الذين آمنوا بواحدانية الله .

٣ — جعل المفعول المطلق يفجرونها (تفجيرا) ليكشف عن هيئته جريان الماء وقوة اندفاعه حين يفجرونه فاللفظة بما لها من درجات

صوتية تتولد من (الفتحة — سكون — كسرة — فتحة) الحـــركات المتعاقبة التى تبث فى النفس الشعور بالعلو ، والعمق ، والغزارة .

٤ — وضحت الآيات الاسباب التى جعـلت المؤمنين يفوزون بالنعيم ومنها الوفاء بالنذر واطعام المســاكين ... الـخ ثم بينت الآيات سبب حرصهم على الفوز ألا وهو خشية الله تعالى والخوف من أحداث يوم القيامة ذلك اليوم الذى وصف بالتعبير (شره مستطيرا) (عبوسا قمطيرا) والمستطير توضح تطاير الاهوال وانتشارها حتى تظلل كافة الأجواء التى يسمح بوجودها حين ذاك أما قمطريرا فتعكس شدة هذا اليوم وعظم ما فيه من شدائد عصيبة حيث تتناثر الكواكب وتتطاير الجبـــــال .

ومما يؤكد هول هذا اليوم وشدته وصفه بالشر واللفظة بتركيبها (الشين والراء) تعكس أصوات توحى بالانتشار فى كافة الأجــواء مع تمكن الحدث واستمراره .

أما لفظة (فوقاهم) تعنى الحماية من الأهوال والكوارث وقــد كشفت فى الآية عن مرحلة العطاء الالهى الاولى للمؤمنين ولفظة الوقاية توحى بأن المسلمين بتوفيق من الله قدموا لانفسهم أسباب النجاة من شر ذلك اليوم فتمسكوا فى حياتهم الدنيا بتعاليم ربهم وسنة رسولهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ولذلك عد تمثلهم بالاوامر وبعدهم عن النواهى وقاية وفرق بين النجاة والوقاية فالنجاة تبين وقوع الحدث العصيب بالانسان ومحاولته التخلص ثم انتصاره أما الوقاية فتبين بعده عن عناصر الشدة معنويا وجسديا .

٥ — ولفظة (لقاهم) تبين ما تمتع به الأبرار من آثار طيبة بعد وقايتهم تتمثل فى نضارة الوجه وسرور القلب وذلك نتيجة حتميــة للامان والاطمئنان الذى جاء من حماية الله لهم . ولقاهم بما فيها من تشديد تدل على مضاعفة البشر والسرور الذى شعر به الأبرار .

٦ — تفصيل الجزاء وطبيعة الثواب الذى استحقه أهل الجنة وقد ربطت الآيات بين الجزاء وسببه الا وهو الصبر والصبر الذى يستحق الجزاء هو الصبر الناتج عن وعى وبصيرة ورضا وقبول لكافة أوامر الحق جل وعلا .

٧ — فى التعبير القرآنى (عبوسا قمطريرا) صورة بلاغيـــة جسدت تعدد عوامل الشدة معنويا وماديا فلفظة (عبوسا) نتصور بها جميعا هيئة الوجه عندما تنقبض عضلاته غضبا ومقتا وشراسة استعدادا للهجوم الساحق .

أما لفظة (قمطريرا) فتعكس بتكوينها الصوتى وخاصة (القاف — طاء) مع تكرار حرف (الراء) عنف المعاناة الوجدانية مع انتشـــار عوامل الشر وتراكمها[1] .

٨ — صورت الآيات المظهر الذى سيكون عليه أهل الجنـــة فهم (متكئين ....) على الاسرة المزينة بفاخر الســـتور مع تمتعهم باسلكينة فلا يحل عليهم الوقت الذى يثير قلوبهم من حر أو برد .

والآية الكريمة (متكئين ...) تبرز أعلى مراتب التمتع والترف ثم صورت الآيات كيفية خدمتهم فقد سخر الله لهم من يطوف عليهم بالأوانى التى جهزت لهم .

٩ — كررت الآيات طبيعة شرابهم وكيفيته ويرجع ذلك الى علم الله الواسع بتكوين مخلوقاته البشرية من الناحية النفسية والفكرية .

١٠ — طواف ولدان مخلدون على المؤمنين بصفة دائمة ومستمرة ولذلك جاء التعبير المضارع (يطوف) وجـــاءت الصورة التشـــبيهية

---

(١) تعكس قمطريرا معانى متعددة : منها التراكم والتجمع والتزاحم والشدة والغلظة مادة / قمطر / لسان العرب .

« حسبتهم لؤلؤا منثورا » رائعة تفوق خيال المتخيل عندما يستحضر منظر الغلمان وهم ينتشرون فوق أرض المكان لخدمة المؤمنين الأبرار ويربط بين منظرهم وبين منظر اللؤلؤ المتناثر الذى تنعكس اشعاعاته بأضواء بديعة بعضها فوق بعض .

١١ — أفصحت الآيات عن عظم النعيم وجعلته يفوق فى كافة مظاهره ملكة التصور « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » .

وقد صورت الآيات بوجه عام الثواب العظيم الذى ينتظر الابرار وصورت طبيعة هذا النعيم بصورة قريبة من تصور البشر وذلك ليقف الأبرار على ما ينتظرهم من نعيم دائم .

١٢ — جمع القرآن الكريم بين اللفظين (نعيما وملكا) لبيـان ما للمؤمنين من فوز عظيم ويجمع بين المتعة المادية والشعور بالعـزة فالنعيم قد يكون بكل مظاهر الترف المادى من مأكل وملبس وشراب أما الملك فيجمع بين ما سبق وبين الشعور بالاعتزاز ورفعة المكانة والقدرة على الحكم والسيطرة .

فالغنى فى حياتنا الدنيا يملك وسائل الترف والنعيم ولا يملك الشعور بالقدرة على توجيه الأمور كيف يشاء أما من يملك زمام الأمور فيتمتع بالأمرين .

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

(صدق الله العظيم)

فى حـــريق البصـــــرة

لابن الرومى

ابن الرومى هو على بن العباس بن جريج وقيل جورجيس المكنى بأبى الحسن المعروف بابن الرومى الشاعر كان مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر المنصور العباسى .

يجمع ابن الرومى بين الجنسية اليونانية من جهـة أبيه وبين الفارسية من جهـة أمه .

عاش ابن الرومى فى مجتمع العصر العباسى الثانى ببغداد وكان مجتمعا متحضرا ارتقت فيه كافة العلوم النقلية والطبيعية وقد أشـعل جذوة الرقى العلمى وساعد على استمرارها تشجيع الخلفاء واتساع حركة الترجمة .

انفعل الشاعر بأحداث عصره المختلفة لأنه جزء من المجتمع يؤثر فيه ويتأثر به كانفعاله بحريق البصرة عندما حرقها الزنج .

فقال ابن الرومى يصف ما حل بمدينة البصرة :

أى نـوم بعـد ما انتهـــك الـز
نج جهـارا محـــارم الاســـــلام
لهف نفسى عليـــك أيتهـا البصـــ
رة لهفـا كمثـــل لهـب الضـرام
لهف نفسى عليـك يا معـدن الخيــ
رات لهفـا يعضـــنى ابهـــامى
لهف نفسى عليـك يا قبـــة الاســ
ـلام لهفـا يطـول معـــه غـرامى
لهـف نفسى لجمعــــك المتفـــانى
لهف نفسى لعـــزك المســـتضام

بينمـا أهلهـا بأحسـن حـال
اذ رمـاهم عبيـدهم باصـطلام

دخلـوها كأنهم قطـع الليـ
ـل اذا راح مـد لهم الظـلام

طلعـوا بالمهنـدات جهـرا فالقـت
حملهـا الحاملات قبـل التمـام

أى هـول رأوا بهـم أى هـول
حـق منه تشـيب رأس الغـلام

اذ رمـوهم بنـارهم من يمـين
وشـمال وخلفهـم وأمـام

كم أغصـوا من شـارب بشـراب
كم أغصـوا من طـاعم بطعـام

كم أخ قـد رأى أخـاه صريعـا
ترب الخـد بين صرعى كـرام

كـم أب قـد رأى عزيـز بنيـه
وهـو يعـلى بصـادم صمصـام

كم رضـيع هنـاك قد فطمـوه
بشـبا السـيف قبـل حين الفطـام

صـبحوهم فكابد القـوم منهـم
ثم ساقوا السـباء كالاغنـام

من رآهن فى المسـاق سـبايا
داميـات الوجـوه للاقـدام

رب بيت هنـاك قـد أخرجـوه
كأن مـأوى الضـعاف والايتـام

رب قصـــــر هنـــاك قد دخـلوه
كان من قبـل ذلك صـعب المـــرام

رب قـوم باتـــوا بأجمـع شـــمل
تركـوا شـملهم بغـير نظــــام

أين ضوضـــاء ذلك الخـــلق فيهـا
أين أســـواقها ذوات الزحـــام

أين فـلك فيهـــا وفـلك اليهـــا
منشـــآت فى البحـر كالاعــــلام

أين تلك القصـــــور والدور فيهـــا
أين ذات البنيـــان ذو الاحـكام

بدلـت تلـكم القصـــــــور تلالا
من رمـــاد ومن تـراب ركـام[1]

وخـلت من حلو لهـا فـهى قفـــر
لا ترى العـين بين تلك الأكـام[2]

غـــير أيـد وأرجـل بائنــــات
نبـذت بينهن أفـــلاق[3] هـــام

وطئت بالهــــوان والذل قســـرا
بعد طول التبجيـــل والاعظــــام

فتراها تســـــفى الرياح عليهـا
جـاريات بهبـوة[4] وقتــــــام[5]

---

(١) ركام : الركام الرمل المتراكم .
(٢) الاكام : الموضع الذى يرتفع عما حوله وهو دون الجبل .
(٣) أفلاق : الفلق الشق .
(٤) هبوة : الهبوة الريح التى تثير الغبرة .
(٥) قتام : والقتام ريح ذات غبار كريهة .

كيفيـــة دراســـة النص الأدبى :

يحتاج متذوق النصوص الأدبية الى دراسة الخصائص التكونية للمنشىء والتى تشمل البيئة الجغرافية والاجتماعية والنفسية والثقافية والسياسية حتى يتحقق للمتذوق التعايش الصحيح مع فن المنشىء أو جزء من فنه فيرى برؤيته ويشعر بأدق أحاسيسه ويتفاعل مع معانيه فينقل بدقة كل عناصر الأثر الفنى للمتذوقين •

وقد قسم الباحثون الذوق الأدبى أو الحاسة الفنية التى تقــدر النصوص لتحكم عليها بعد تحليلها الى الموضوعية والذاتية والموضوعية تعنى درجة التناسق بين اللفظ والمعنى وخصوبة الخيال وجمال الايقاع أى درجة تحقق الجمال بين المضمون والشكل أما الذاتية فترمى الى أن جمال الأثر الفنى يرجع الى ذاتية دارس النصوص الأدبية وطبيعته وكيفية رؤيته لعناصر النص •

ومن الجدير بالذكر أن أبرز عناصر الأثر الفنى هى :

العاطفـــة : وهى الحالة التى تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه الى التعبير عن مشاعره والعاطفة الصادقة هى التى تدفع الأدب الجيد الى الذيوع والخلود •

— **الفـــكرة :** تعنى المضمون أو المعنى وهى أساس للعاطفة •

— **الخيــــال :** وهـــو من أعظم المواهب النفسية للمنشىء ويعمل الخيال على أحداث المشاركة الوجدانية بين المنشىء والمتذوق • وبعـــد الاشارات السابقة الى كيفية دراسة النص الأدبى نتأمل نص ابن الرومى فى حريق البصرة تأملا يجمع بين رؤية المنشىء ورؤية المتذوق •

التعليـــق والتحليـــل :

بين ابن الرومى للمتذوق ما حل بمدينة البصرة فى وصف يعـــج بالصور المجسمة والشعور الفيـــاض فذكر كيفية دخـــول الزنج بغته مسلحين بالسيوف القاطعة فى منظر رهيب بث الرعب فى نفوس الضعفاء العزل اذ رموهم بشعل النيران من كل جانب لاحاطتهم باللهب وســـد ثغرات النجاة عليهم • فاضطربت أحوال أهل البصرة النفسية اضطرابا شديدا •

وقد جاءت الأبيات كلها كصرخة واحدة عالية ترفض ما حـــدث لشمل الأمة الاسلامية من تفكك وانهيار كان من أسبابه تقليد الأعاجم فى العادات والتقاليد والانصراف عن المهمة الاساسية التى فوض الله تعالى الخلفاء لها •

فالقصيدة متشابكة الخيوط متلاحمة الأشكال متناسقة فى استحضار الهيئات والمناظر التى صورها المنشىء ولا يستطيع المتذوق تقســـــيم أبياتها ومحاولة تذوق بيت بصورة منفردة مما يدل على أن القصـــيدة صورت منظرا حيا لا تتـــم له الدرجة التأثيرية الا بالرؤية الوجدانية والبصرية والسمعية متحدة والتى تعتمد على التخيل والتصور وقد اعتمد المنشىء فى عرضه الفنى على بعض عناصر القصة كتصويره للمكان وكيفية وقوع الحادثة ودرجة الصراع العاطفى لأهل المدينة المنكوبة •

ومن الصور التى نقلت مشاهد الرعب والفزع قول الشاعر « فألقت حملهـــا ••• » حيث استطاع التصوير ابراز درجة الخوف كما أكـــد هول المفاجأة الغادرة بقوله « حق منه تشيب رأس الغلام » وقد ذكر لفظة الغلام ليشير الى شدة الأهوال فالغلام الذى لا يقدر المخاطر أدرك شدة الكارثة التى أثرت عليه فشاب شعره من الخوف والهلع •

واستطاع المنشىء بلفظة « غصة » تصوير الحالة النفسية التى تجسمت عند البعض فى صوت وهيئة الغصة وما تلك الغصة الا الرفض التام لمـــا حدث بالبصرة •

ومن الصور الحية التى كونت المشاهد التأثيرية التى تفيض حيوية ما ذكره عن موقف الأبرياء فالبعض ألقى بنفسه لانقاذ غيره من الضعفاء فصوب الزنج اليه السهام النافذة فقضى عليه ثم تكرار هذا المشهد الذى نجم عنه كثرة عدد القتلى الذين طرحوا على التراب وقد علاهم الغبار فطمست معالم وجوههم ومن بين هؤلاء القتلى من يغوص فى بحـــار الدمـــاء •

وتتحرك مقدرة الشاعر التصويرية بين المشاهد السابقة فيصور هيئة الأب الذى يعثر على فلذة كبده يخترق جسده حسام صارم لينقــــل للمتذوق بذلك هول ما فعله الزنج فى النفوس البشرية ونقل ابن الرومى حال النساء على يد الزنج فصور ما فعلوه بالفتيات بصورة وحشية تصور همجية الزنج وأخلاقياتهم •

وقد كرر الشاعر الاستفهام (بكم) ، و(أين) ليذكر المتذوق بما كانت عليه البصرة فى الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية وبما آلت اليه •

والقصيدة بذلك ملحمة حية تصور قطاعا حيا لحادثة تغلغلت فى أعماق البيئة وأثرت فى دعائم العلاقات بين أفرادها •

فى النصــح والارشــــاد

للامام على بن أبى طالب

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة الزهراء • والده أبو طالب كان شريفا عظيما اشتغل بالتجارة فى الجاهلية ولمـا مات أبوه ورث عنه السـقاية وهو الذى كفل ابن أخيه محمدا صلوات الله عليه •

أما والدته فهى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن مناف أسلمت وهاجرت الى المدينة وماتت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم •

قال على بن أبى طالب فى النصح والارشاد :

ذهب الشـــباب فما لـــه من عـــودة
وأتى المشـــيب فأين منـــه المهـــــرب

ضـــيف ألـــم اليـــك لم تحفـــل به
فترى لـــه أســـفا ودمعـــا يســكب

دع عنـــك ما قد فات فى زمن الصـــبا
واذكر ذنـــوبك وابكهـــــا يا مذنب

وأخشى مناقشـــة الحســـاب فانـــه
لابـــد يحصى ما جنيـــت ويكتـــب

لم ينســـه الملكان حين نســـــيته
بل أثبتـــاه وأنت لاه تلعـــــــب

والروح فيـــك وديعـــة أودعتهـــا
ستردها بالرغـــم منـــك وتســــلب

وغرور دنيــاك التى تســـعى لها
دار حقيقتهــا متــاع يذهــب
والليــل فاعــلم والنهــار كلاهما
أنفاســنا فيهــا تعد وتحســب
وجميــع ما حصــلته وجمعتــه
حقــا يقينــا بعــد موتك ينهــب
لا تأمــن الدهــر الصروف فانه
لا زال قــدما للرجــال يهــذب
وكــذلك الايام فى غــدواتها
مــرت يــذل لهــا الأعــز الأنجب
فعليــك نقــوى الله فالزمها تفــز
إن النــقى هــو البهى الأهيــب
واعمل لطاعتــه تنل منــه الرضــا
إن المطيــــع لــربه لمقــــرب
فاقنع ففى بعض القنــاعة راحــة
واليــأس مما فات فهــو المطلــب
وتوق من غــدر النســـاء خيــانة
فجميعهن مــكائد لك تنصــــب

. . . .

واجه عــدوك بالتحيــــة لا تكن
منــه زمانـــك خائفــا تترقـــب
واحذره يوما إن أتى لــك باســما
فالليث يبــدو نابه إذ يغضــب

---

(١) توق : من الوقــاية .

إن الحقـــود وان تقـادم عهـده
فالحقـد باق فى الصـدور مغيب
لا خـير فى ود امرىء متملــق
حلو اللســـان وقلبـه يتلهـب
يلقـاك يحلـف أنه بـك واثـق
وإذا توارى عنـك فهـو العقرب
يعطيك من طرف اللســـان حلاوة
ويروغ منـك كما يروغ الثعلـب
واختر قـرينك واصطفيه تفاخـرا
إن القرين الى المقارن ينســـب

التحليـــــل :

يجب على متذوق النص الأدبى التعايش مع بيئة المنشىء حتى يرى برؤيته وينقل هذه الرؤية بصدق ووعى للمتذوقين فالنص جزء لا يتجزأ من نتاج المنشىء وهو بالتالى لبنة من اللبنات التى تكونت من تجاربه الذاتية والاجتماعية ثم اختمرت فى نفسه حتى نضجت عناصرها فأخرجها مولودا حيا له كيانه الذاتى والاجتماعى والقصيدة التى بين أيدينا هى قصيدة بليغة فصيحة نظمها الامام على فى النصح والوعظ والارشاد المشتق من روح الاسلام كما أنها أبرزت شخصية الامام ومجتمعه وما بينهما من تأثير وتأثر •

١ — العاطفـــة :

تأثر المنشىء بأحوال عشيرته وتمسك أفراد مجتمعه بمظاهر الدنيا وغفلتهم عن دار الحق والبقاء فثارت عاطفته على هذه الغفلة التى تبدد المثاليات الاسلامية الرفيعة وقد عاش مع ثورته ورفضه العاطفى حتى استطاع تحديد ملامح هدفه فانطلق يدعو لليقظة الروحية السوية وقد اتسمت عاطفته فى القصيدة بالصـدق مما أدى الى تجاوب السامع

والقارىء فى كل زمان ومكان لدعوة المنشىء الواعية ويلمس المتذوق فى القصيدة تنوع العاطفة ويرجع ذلك الى اختلاف درجة الانفعال وتعدد مصادره فجاء كل انفعال يطابق طبيعة العاطفة التى فاضت معينها ويلمس المتذوق أن الانفعال الذى تغلب على الانفعالات العامة فى القصيدة هو انفعال الخوف من الله جل علاه • ومن ذلك قوله :

دع عنك ما قد فات فى زمن الصبا
واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب

واخش مناقشة الحساب فانه
لابد يحصى ما جنيت ويكتب

لم ينسه الملكان حين نسيته
بل أثبتاه وأنت لاه تلعب

والروح فيك وديعة أودعتها
ستردها بالرغم منك وتسلب

والليل فاعلم والنهار كلاهما
أنفاسنا فيها تعد وتحسب

والعاطفة فى الابيات السابقة متأثرة بروح القرآن الكريم وقد أبرزت درجة تدين المنشىء وكيفية استقباله لدعوة الله سبحانه وتعالى •

الأفكار :

تتولد الأفكار نتيجة لنضج الانفعالات ووضوح معالمها فى نفسية المنشىء فيبدأ الشاعر بعدها فى نظم عواطفه الناضجة ويجسدها فى كلمات وعبارات مترابطة ترابطا معنويا يمثل قطاعا حيا من سلوكيات المجتمع ورؤية المنشىء تجاه هذه السلوكيات ومن هذا النبع قول الشاعر :

لا تأمن الدهر الصروف فانه
لا زال قدما للرجال يهذب

وكـــذلك الايــــــام فى غـــــدواتها
مرت يـــذل لها الأعــز الأنجــب
فعليــك تقـــوى الله فالزمها تفـــز
إن التقى هـــــو البهى الأهيـــــب
. . . .
لا تأمـــن الأنثى زمانـــــك كـــــله
يوما ولو حلفـــت يمينـــا تكــذب
. . . .
إن الحقـــود وان تقـــادم عهـــده
فالحقـــد باق فى الصـــدور مغيب
واحفظ لســــــانك واحترز من لفظه
فالمرء يســـــلم باللســــــان ويعطب
والسر فاكتمـــه ولا تنطـــــق بـــه
. . . .
فهو الأســـير لديك إذ لا ينشـــب
لا تحرصـــن فالحـــرص ليس بزائد
فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب
ويظـــــل ملهـــوفا يروم تحيـــــلا
والرزق ليس بحيـــلة يســـــتجلب
كم عاجــز فى النـــاس يؤتى رزقه
رغــدا ويحـــــرم كيس ويخيـــب

وقد امتازت الأفكار بالسهولة واليسر والوضوح لصدق تعايش الشاعر العاطفى معها كما اتسمت أفكاره بالتسلسل فى عرض عناصر

الفكرة واعتمد الشاعر فى علاج أفكاره على تعاليم الاسلام — ليحرك مشاعر الانسان ويحثها على تدبر أفكاره ومعانيه •

الأسلوب والتصوير :

تعنى كلمة الاسلوب المنهج الذى استخدمه المنشىء فى عرض أفكاره التى تولدت عن عواطفه ويتضمن الاسلوب الالفاظ والصور الخيالية والايقاع الموسيقى •

استعان الشاعر بالالفاظ السلسلة الواضحة التى تجسد المراد بيسر وسهولة للمتذوق وقد تشابكت الالفاظ والتحمت لتكون صورة حية تجسد بعض المشاهد الواقعية •

ومنها قول الشاعر :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى
فرجوعها بعد التنافر يصعب

إن القلوب اذا تنافر ودها
شبه الزجاجة كسرها لا يشعب[1]

يدرك المتذوق أن الصورة اعتمدت على قدرته الخيالية فى الربط بين الحقيقة والخيال فالشاعر يدعو أفراد مجتمعه الى المعاملة الحسنة الرفيعة التى تثمر ثمارها المرجوة بين المسلمين فشبه البعد عن المنهج وأثره بهيئة الزجاجة الشفافة الرقيقة اذا انكسرت وتحطمت وانتشرت فى المكان هل يجوز التحامها وخاصة اذا كانت هذه الاجزاء تشبه ذرات التراب الصغيرة ودعوة الشاعر دعوة رقيقة تتمنى نشر الود بين المسلمين وتنفر من الحقد والحسد والكذب وكل الخصال الذميمة فى تشبيه سهل واضح الملامح يستطيع تخيله الخاص والعام وقد اعتمد

---

(١) لا يشعب : اى لا يمكن التحام الكسر •

الشاعر فى قصيدته على الايقاع والموســيقى الخافت مع الموسيقى الداخلية النابعة من الصدق العاطفى .

والقصيدة بألفاظها وصورها وأنغامها دعوة لليقظة الروحية التى تقرب الانسان من ربه الأعلى :

فالجأ لربــــك إنــه أدنى لمــــن
يدعوه من حبــل الوريد وأقــرب

* * *

من شعر الدكتور الطبيب

حسن ابراهيم

هو حسن ابراهيم شاعر مطبوع أولع بالشعر فى صباه وتوفر له من قديمه وحديثه زاد كبير وحفظ منه قدرا لا بأس به عالج الدكتور الطبيب حسن ابراهيم الشعر دون احتراف فى سن مبكرة .

انضم الى مجمع اللغة عام ١٩٧٨ م . له شعر دينى يشهد بعمق عواطفه وفطرته السوية . ومنه قصيدة بعنوان (وقفة أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم) ومنها :

بحبك يا خير الأنام جميعهم
وهديك إنى قد ملأت حياتى

تذكر حبيبا أخلص الود والهوى
وكن لى شفيعا إذ يحين مماتى

ويا رب عفوا من لدنك ورحمة
لعبد دعا فى أقدس الحرمات

فقد زرت ذاك البيت أدعو ملبيا
وجئت رسولا حاملا دعواتى

لقد رعنت[١] نفس بشرخ شبيبتى
وفى غافل من غابر السنوات

. . . .

---

(١) رعنت : حمقت ، شرخ الشباب أول نضارته .

فلما بدا شـــيب القذال[1] وأفعمت
حيــــاتى بأوزار وفيــض هنــات

لجأت الى الرحمــن أطلــب عفوه
وربى غفـــور واســـع الرحمات

فيارب ألف بين عــرب تفــــرقوا
ووحد خطاهم بعــد طول شـــتات

فتحنا فجاج الأرض والشـــمل جامع
وبالـــدين سرنا فى هــــدى وثبات

وكنا منار الارض شرقا ومغـــربا
بعــــلم وإيمان وخـــير هـــداة

. . . .

مشيت ثقيل الخطو فى القلب حسرة
لتركى مقــــام الأعظـم العطرات

دفعــت الى مثـــواه منى نواظـــرا
مودعــة مــن دمعهـــا شرقـــات

عليك ســـلام الله ما أشرق الضحى
وما لاح نور البـــدر فى الظلمـــات

التعليــق والتحليــل :

١ — العاطفــة :

تتسم الابيات بصدق العاطفة وعمقها وقد استطاع الشاعر التأثير بها على المتذوقين لأن عاطفته عاطفة جماعية يشعر بها المسلمون فكل

---

(١) القذال : القفا .

من يقرأ الأبيات يناجى بمشـــاعره النقية وعواطفه الطاهرة ســـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيش فى رحابه يستنشق عبير الأمان والسعادة والنشوة والسكينة فالعاطفة هنا ليست نتاج تجربة فردية أو اجتماعية ولكنها نتاج فطرة بشرية عامة فطرها الله سبحانه على حب رسوله المصطفى الأمين فأحبت هذه الفطرة رسولها محمد صلى الله عليه وسلم طاعة لربها الذى اختار نبيه من خيار البشر وجعله سراجا ونورا ورحمة لعباده فى المشارق والمغارب فمن أحب الله جل علاه أحب محمدا صلى الله عليه وسلم •

ومن هذه الأبيات التى تصور العاطفة العامة :

وفاضت عيون الناس دمعا وأجهشت
نفـــوس لمنجيهـــا مـــن العـــثرات
وعادت بى الذكرى دهـــورا سحيقة
إلى فجـــــر دين عاطـــر النفحات
هنا أكمل الروح الأمين رســـــالة
أضاءت فلاة البـــــدو العرصـــات[1]
وشـــعت وراء الأفق حبا ورحمـــة
لتغشى بـــلاد الأرض والجنبـــات

فكل مسلم يقف على هذه المعانى وتجيش عواطفه عند سماعها فسبحان الذى فطر المسلمين على عاطفة الانتماء والحب لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم •

الأفـــكار :

تتضمن الأفكار مراحل الدعوة الاسلامية وكيفية وقوعها على كفار مكة وكيفية مواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الشرك ثم

---

(١) العرصات : ساحات الديار •

أثر الدعوة الاسلامية فى الرقى النفسى والمادى وعقب الشاعر بآماله العريضة بالعودة الى رحاب الاسلام حتى ننير الارض شرقا ومغربا ولن يتم ذلك الا بالتضامن الاسلامى بأسمى معانيه • قال الشاعر :

فتحنا فجاج الأرض والشمل جامع
وبالـــدين سرنا فى هــــدى وثبات

وكنـــا منار الارض شرقا ومغـــربا
بعـــلم وإمان وخـــير هـــداة

وقد اتسمت الأفكار فى القصـــيدة بالوضوح والتسلسل وقرب المنـــال •

* * *

الأســلوب والخيــال :

جاء الأسلوب سهلا ميسرا ليوافق روح القصيدة فقد نبعت الالفاظ من وحى فطرة سوية أمنت بالله الواحد الأوحد وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا مبلغا عن رب العزة فبعدت عن التكلفة وتجنبت المبالغة فوردت لتشكل الصياغة العامة فى بناء متكامل يبهر النفوس ويسرى فى الوجدان كما جاء الخيال قريبا من المفهوم الخاص والعام :

هنا غار فى ذا الترب بدر هــداية
وما غاب نور ســـــاطع اللمعــات

يدرك المتذوق فى البيت السابق أن المراد ببدر الهداية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد شبه الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وأثر منهجه بالبدر ليلة كماله وأثره على السارى فى الظلمات •

أما الشطر الثانى فكناية قريبة تشير الى استمرار الاثر العظيم لسيدنا محمد فى نفوس المسلمين ودلالة على صدق نبوته وبرهان على حفظ الله تعالى لدينه الحنيف وهذا مصداق لقوله تعالى : « إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فالله تعالى شأنه يحفظ الاسلام ومنهجه ماديا ووجدانيا كما يحفظ حب رسوله فى قلب كل مسلم ليكون بدر ساطعا هاديا يقتدى به •

وإلى جانب الوضوح فى الصياغة وقرب الخيال اتسمت القصيدة بوحدة البناء العضوى كما جاءت موسيقى الايقاع والموسيقى الداخلية هادئة لتشيع الود والالفة والنشوة فى النفوس المؤمنة •

مصر تتحــدث عن نفســها

للشــاعر حــافظ ابراهيم

ولد فى إحدى بلدان الصعيد لأب مصرى وأم تركية . توفى والده وعمره أربع سنوات فكفله خاله . التحق حافظ بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٩١ وعين فى وزارة الحربية ثم نقل الى وزارة الداخلية .

اتصل بالشيخ محمد عبده الذى هيأ له الاتصال بالطبقة الممتازة أمثال سعد زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين وغيرهم .

له أشــعار عدة تترجم الحيــاة الاجتماعية والسياسية وتبــرز درجة وطنيته منها قصيدته « مصر تتحدث عن نفسها » :

وقف الخــلق ينظــــرون جميعــا
كيف أبنى قواعد المجــد وحــــدى

وبناة الاهــرام فى سالف الدهــ
ــر كفونى الــكلام عند التحــدى

أنا تاج العــــلاء فى مفــرق الشر
ق ودراته فــــرائد عقــــدى

أى شىء فى الغرب قد بهــر النــا
س جمالا ولم يكن منــه عنــــدى

فترابى تبر ونهــــرى فــــرات
وســـمائى مصــــقولة كالفرند

. . . .

(١) الفرند : الجواهر .

أنا إن قــــدر الالـــه ممـــاتى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعــدى

ما رمـــانى رام وراح ســـــليما
من قـــديم عنـــاية الله جنـــدى

كم بغــت دولـــة على وجـــادت
ثم زالت وتلك عقــبى التعـــدى

. . . .

قل لمن أنكروا مفـــاخر قـــومى
مثـــل ما أنـــكروا مآثر ولـــدى

هل وقفتم بقمـــة الهـــرم الأكـــ
بر يوما فرأيتم بعض جهـــــدى

. . . .

هل فهمتم أسرار ما كان عنـــدى
من عــــلوم مخبــوءة طى بردى

ذاك فن التحنيـــط قد غلــب الدهـــ
ـــر وأبلى البلى وأعجـــز نـدى

إن مجـــدى فى الأوليـــات عـــريق
من له مثـــل أوليـــاتى ومجـــدى

أنا أم التشريع قـــد أخـــذ الروما
ن عنى الاصـــــول فى كل حـــد

ورصـــدت النجـــوم منـــذ أضاءت
فى سمـــاء الدجى فأحكمت رصدى

وقديما بنى الاسـاطيل قـومى
ففـرقن البحـار يحمـلن بنـدى[١]

فسـلوا البحـر عن بلاء سـفينى
وسـلو البر عن مواقـع جـردى[٢]

قـد وعـدت العـلا بـكل أبى
من رجالى فأنجـزوا اليوم وعدى

أمهـروها بالـروح فهى عروس
تشنأ[٣] المهـر من عروض ونقـد

وردوا بى مناهـل العـز حتى
يخطـب النجـم فى المجـرة ودى

وارفعوا دولتى على العلم والأخـ
ـلاق فالعـلم وحده ليس يجـدى

وتواصوا بالصبر فالصبر إن فـا
رق قـوما فماله من مسـد[٤]

واستبينوا قصـد السبيل[٥] وجدوا
فالمعـالى مخطـوبة للمجـد

العاطفـة :

تغنى حافظ ابراهيم بأمجاد مصر كثيرا ويرجع ذلك الى شدة تعلقه ببلده مصر ورغبته فى استمرار حضارتها والقصيدة نابعة من تجربة ذاتية واجتماعية صادقة لشاعرنا الذى انفعل بكل مظاهر الحياة المصرية

---

(١) البند : العلم الكبير .
(٢) الجرد : الخيل .
(٣) تشنأ : تكره .
(٤) مسد : أى لا شىء يقوم مقامه ويسد مسده .
(٥) قصد السبيل : الطريق المستقيم .

التى تجسد العزة والكرامة وتغذى أولادها بروح الوطنية وحافظ ابن من أبنائها الأبرار الذى مثـل الروح العامة للمصريين فكان ترجمان عواطفهم ومشاعرهم والمعبر عن خواطرهم وقد جاءت العاطفة فى الابيات حية صادقة ينفعل بها المصرى فى كل زمان ومكان ومرجع ذلك حرارة العاطفة وصدقها ٠

الأفـكار :

تناولت الافكار المعانى التى تشير الى ما لمصر من أمجاد عريقة تنطـق بعزتها وكرامتها بين أقطـار الدنيا كما تناولت الافكار كيفية المحافظة على أمجاد مصر وكيفية استمرارها مع الحث على مضاعفة البناء الذى يشيد بما لمصر من مكانة رفيعة ومنزلة شريفة حباها الله لها ٠

وقد امتازت الافكار بالوضـوح وجـودة العرض كما اتسمت بالترابط والتناسق الذى تولد عن عمق اقتناع الشاعر بأفكاره ولذلك عرضت الافكار بوعى وبصيرة جعلت الافكار رغم سموها تناجى مشاعر العام والخاص :

أنا تاج العـلاء فى مفـرق الشر
ق ودراته فـرائد عقـدى

. . . .

أنا إن قـدر الاله ممـاتى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعـدى

فالمتذوق عند تذوقه للبيتين يدرك ما تحمله الافكار من معـانى الرفعة وشرف المنزلة ٠

الخيـــــال :

اتسم الخيال فى القصيدة بالوضوح وجلاء المشـاهد وحيويتها وقرب استحضار الصورة التى يصـورها المنشىء فقد تجنب المنشىء التكلف والمبالغة والتعقيد فهو كمصرى يردد خواطر مجتمعه ويعبر عن أحاسيسه وعواطفه النابعة من غريزة حب الوطن المصرى • فالمنشىء بهذا يناجى مشاعره التى هى مشاعر كل مصرى ولذلك جاء الخيال بسيطا واضحا قريبا للنفس والفكر :

أمهـروها بالـروح فهى عـروس
تشـــنأ المهر من عروض ونقـد
وردوا بى مناهـل العـــز حتى
يخطب النجـــم فى المجـرة ودى

صور الشاعر مصر فى تشبيه بديع بالعروس الجميلة التى تنفرد بكل سمات ومعانى العزة والكبرياء فهى ليست ككل عروس تمهر بالذهب والفضة أو المبالغ الطائلة ولكنها تمهر بأغلى شىء لدى كل انسان ألا وهى الروح • وهذا المهر لا يقتصر على الرجال بل على كل انسان ولد على أرضها وتمتع بنعيمها من الرجال والنساء والاطفال والكهول والشيوخ ولذلك وجه المنشىء حديثه لجميع أبناء الشعب المصرى فقال « أمهروها » الجميع يمهرون عروسة واحدة ألا وهى مصر •

فالخيال فى البيت يبين ما لمصر من كبرياء وشرف يشعر به كل مصرى وقد وردت الصورة واضحة الملامح تؤثر فى كل متخيل مصرى •

وتأججت مشاعر المنشىء فى البيت التالى فصور ما لمصر من كبرياء يصل بها الى ذروة الأمجاد جميعها :

وردوا بى مناهـــل العـــز حتى
يخطب النجـم فى المجـــرة ودى

حيث حدثت مصر أولادها فبينت لهم كيفية رد العزة للعرب جميعا (وردوا بى) فهى تاج للعرب فى كل زمان ومكان فيها يرد لكل بلد عربى عزته وكرامته وتصبح المنارة الهادية التى تتودد لها دول العالم العربى وقد يراد الشاعر بجملة (وردوا بى مناهل ....) دعوة مصر أولادها للبحث فى خيراتها ودراســة حضاراتها العريقــة وتجديدها بالابتكار والاختيار حتى تصبح أرقى دول العالم فى المشارق والمغارب كما كانت الأم للحضارات جميعا .

وقد تمتعت القصيدة بالموسيقى الهادفة التى تجذب المشاعر تجاه المعنى المراد كما اتسمت بقدرة الموسيقى الداخلية على التأثير .

من أنوار ســورة الاسراء

قال تعالى شأنه فى سورة الاسراء :

بسم الله الرحمن الرحيم :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا • ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا • وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » •

صدق الله العظيم

الآيات من ٢٣ : ٢٩

اللغــويات :

١ — قضى ربك : أمر وحكم

٢ — إلا اياه : وحده لا شريك له •

٣ — لا تقل لهما أف : لا تتضجر منهما ولا تستثقل حياتهما •

٤ — لا تنهرهما : لا تزجرهما •

٥ — قولا كريما : قولا طيبا لينا •

٦ — واخفض لهما جناح الذل : تواضع لهما فى تذلل وخشوع وكن بهما رحيما •

٧ — للأوابين : التوابين من ذنوبهم •

٨ — غفورا : كثير الصفح واسع المغفرة •

٩ — آت ذا القربى حقه : أعط أقاربك حقهم من البر والاحسان

١٠ — المسكين : المحتاج.

١١ — ابن السبيل : المسافر الذى فقد ماله .

١٢ — لا تبذر : لا تنفق مالك فيما لا يفيد .

١٣ — المبذرين : الذين ينفقون المال فيما لا يفيد .

١٤ — تعرضن عنهم : تتركهم حتى يأتيك رزق فتعطيهم .

١٥ — قولا ميسورا : قولا لينا فيه وعد جميل .

١٦ — لاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك : المراد تصوير البخل والشح وذمهما .

١٧ — لا تبسطهما كل البسط : المراد التحذير من الاسراف .

١٨ — محسورا : نادما متحسرا .

التأمل الايمانى للآيات الكرمية :

بدأت الآيات الشريفة بالفعل الماضى (وقضى) الذى يعنى الحكم أى (حكم وكتب) وارتبط الفعل الماضى (وقضى) بذات الله العليا (وقضى ربك) والمراد حكم وكتب ربك أيها الانسان أن تعبده وحده ولا تشرك به شيئا والجملة (وقضى ربك) دعوة ربانية للمنهج السوى الذى تستقيم به حياة الانسان .

وقد قال الخالق العظيم (ربك) ولم يقل (وقضى الله) ليبين لعبده الانسان طبيعة الصلة بين ذاته العليا وبين عبده الانسان ألا وهى صلة الرحمة والحب مع أساليب التربية الراقية العالية وقال الله (ربك) ولم يقل (ربكم) ليشعر كل انسان أن ربه يناديه من علاه فيدرك حب ربه له وشدة رعايته وحفظه لكيانه .

فاذا كان الله رب العالمين يناديك أيها الانسان بذاتك الشخصية فكيف لا تعبده أنت وحده لا شريك له وهو القاهر فوق عباده ! إن الله

جل علاه حين حكم على عبده الانسان بأن يعبده وحده ولا يشرك به فان هذا الحكم يعود بالخير العام على الانسان وحده حيث يشعر بكرامته وتتعمق الثقة فى نفسه وتتسم حياته بالأمن والسكينة والاستقرار وذلك حين يدرك إدراك اليقين أن ربه هو المالك لزمام أمره من لحظة الوجود الى لحظة العدم فالمخلوقات حوله ما هى إلا أسباب تتعاون وفق ارادته جل شأنه •

فالانسان حين يدرك أن ربه واحد أحد لا يصيبه الفقر النفسى فلا يضطرب ولا يجزع ولا يفزع ولا يتذلل لمخلوق مثله يظن أنه قادر على أمر من أمور حياته • فعبادة الله وحده أمر بها الله تعالى شأنه لخير عبده •

وبعد أن أمر سبحانه بعبادته وحده • أمر بحسن الصحبة للوالدين « وبالوالدين إحسانا » وجاء حرف الواو ليشير الى ضرورة تذكر الله عند معاملة الآباء والأمهات فالانسان يعبد ربه وحده فى كل لحظة من لحظات حياته وفى كل نبضة من نبضات قلبه وأقرب من يتصل بهم والديه فيجب أن يثمر حبه لله وحده الثمرة الطيبة لمن يعاشرهم وألصق من يعاشرهم والداه وهما أصـــل وجـــوده بأمر ربه فهما له نفحته الطاهـــرة •

وجعل الله حسن الصحبة للوالدين فى قمة رضاه سبحانه وتعالى ولذلك ربط بين عبادته وحده وبين الاحسان اليهما فالاحسان اليهما من منطلق الطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى •

كما أن الاحسان اليهما ينشر الحب والألفة ويضاعف من روابط التآلف •

وبالتأمل يجد الانسان أن الوالدين أعظم الناس فضلا عليه بارادته تعالى فمن يكرمهما ويحسن اليهما يعرف الحب طريق قلبه وتسرى فى

عروقه أحاسيس الرحمة ويتطبع باللين والرفق ومن اتصف بهذه السمات بخفق قلبه لربه فتسمو مشاعره ويذوب وجدانه حبا لله رب العالمين فالطاعة للوالدين تهذب النفس البشرية وتهديها الى المثل الفاضلة •

بين الله طبيعة العلاقة بين الأبناء والآباء بلفظة الاحسان والاحسان يشير الى معانى الحسن فى كل قيمة انسانية فلهما أحسن الأدب وأحسن المجاملة وأحسن العطاء وأحسن الكلام أى من كل شيء أفضله وأطيبه •

وتأمل أيها الانسان أن الله تعالى شـأنه وصاك أنت بهما ولم يوصهما بك وذلك لأن حبهما لك فطرة وغريزة هما يحبان لك السعادة والاستمرار ويتمنيان لك الحياة بصحة ولا يستثقلان منك أبدا ولكن تأمل موقفك عندما يكبران ويحتاجان لك ؟! بعض الناس — حفظنا الله وإياكم — يشعر بالضيق والألم والضجر عندما يعول والديه أو أحدهما قد تحجر قلبه وتمكن منه شيطانه فأنساه أن رعايته لوالديه أو أحدهما تكريم من الله له حيث يرفع شأنه ويضاعف درجاته • ومن العجيب أن نجد من يؤدى فرائض الله من صلاة وحج وزكاة وصدقات ويتضجر من والديه ؟

أيها الانسان إن ربك لا يرضى لك الهوان بل يحب لك الاستقرار والسعادة فوق أرضه الذى جعلك ضيفا عليها •

وتذكر أن سوء المعاملة للوالدين ذلة وهوان لك وكيف لا وقد أصبحت فى قبضة الشيطان ؟

وعقب الله بقوله تعالى « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » ليبين للانسان مسئوليته تجاهما فى هذا السن وشدة احتياجهما له ولذلك قال الحق الرحمن الرحيم (عندك) ولم يقل (إما يبلغن فى الدنيا) مما يدل على ضرورة رعايتهما بصفة مستمرة واحترامهما والملازمة لهما وعلى سبيل المثال لا الحصر لا يجوز أن تكون الأم وحيدة تعانى آلام

الغربة النفسية المتولدة من الوحدة وكل واحد من أولادها له ما يشغله من ماديات الحياة ٠

وقد أشار الله جل علاه الى ضرورة البشر فى وجههما عند معاملتهما فقال تعالى شأنه « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمـــة وقل رب أرحمهما كما ربيانى صغيرا » ٠

فلقد نهى الرحمن الرحيم عن اظهار أى اشارة أو علامة ضيق للوالدين فالتنهد الذى يبين الشعور بثقلهما حرمه الله الرحمن الرحيم وتحريم الله الأمر يجب أن يطاع لأنه من رب العالمين الذى يريد الخير لعباده وبعد تحريمه تعالى للصوت الذى يحمل رنين الضيق « أف » أمر سبحانه بما يلى :

١ ـــ وقل لهما قولا كريما ٠

٢ ـــ اخفض لهما جناح الذل ٠

٣ ـــ قل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ٠

بين الله فى الأمر الأول ضرورة اسعادهما بكل شىء وأبرز ما يمكن تقديمه الكلمة الطيبة التى تحمل معانى الشكر والثناء والعرفان بالجميل وأعد الله هذا حقا لهما يجـــب قوله فى كل لقاء يومى متجـــدد فذلك يشعرهما بالسعادة ويرفع روحهما المعنوية كما يرفع شأنك أيها الانسان عند ربك فى الدنيا والآخرة ٠ وقد وصف الله القول بلفظه (الكريم) التى تشير الى أسمى درجات العطاء المعنوى ٠٠

كما أمر سبحانه وتعالى بعد القول الكريم بضرورة الرحمة بهما والتواضع لهما وقد جاء أمره تعالى تصوره لفظة (الخفض) التى تعنى التزام أشد سلوكيات التواضع والتذلل لهما لأنهما أصل وجوده فى

الدنيا باذن الله تعالى فلا يجوز للانسان أن يتكبر عليهما أو ينفر منهما مهما كان وضعهما بالنسبة لوضعه ٠

ثم أمر الله الرحمن الرحيم بالدعاء لهما فى الحياة وبعد موتهما ٠

سبحانك ربى أنت أرحم الراحمين قولك الحــق وأمرك الخير لجميع العباد ٠

لقد وصى الله بالوالدين لأنهما أساس المجتمع واستقرارهما النفسى ما هو الا استقرار لدعائم المجتمع ٠

انتقلت الآيات الشريفة بعد هذه الوصية الى اخبار الانسان بعلم الله بما يدور فى نفسه وكيف لا وهو سبحانه أقرب اليه من حبل الوريد ٠ قال جل شأنه :

« ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفــورا » ٠

فتح الله تعالى فى الآية السابقة لعباده جميعا أبواب رحمته فمن نفذ وأطاع فله البشرى ومن قصر فباب التوبة مفتوح لأن الله هو الغفور الرحيم يحب توبة عباده فقد كتب على نفسه الرحمة ولذلك جاء الفعل (كان) ماضيا ليدل على أن الله كتب على نفسه الغفران وأصبح صفة ثابتة منذ خلق الحق عباده كما جاءت الصفة غفور على وزن فعول لبيان فيض غفرانه واستمراره لعباده ٠

ثم بينت الآيات الشريفة بعد الحث على حسن المعاملة للوالدين أسس التكافل الاجتماعى والمنهج الاقتصادى الذى يجب أن يلتزم به الفرد لتستقر دعائم المجتمع اقتصاديا واجتماعيا ٠

فقد أمر الحق تبارك وتعالى بأداء حقوق المساكين وأبناء السبيل وجعل سبحانه هذا الأداء حقا كرما من الله ورحمة على المساكين وأبناء

السبيل حتى لا يشعروا بمهانتهم أو ضعفهم وحتى لا يشعر من يعطيهم بتفضله عليهم •

ثم أمر سبحانه عباده باتباع منهـــج الاعتدال فى أمور حياتهم فنهاهم عن التبذير كما نهاهم عن البخل والشح •

ونفرهم سبحانه من الوضعين فجعل المبذرين إخوانا للشياطين ونفرهم سبحانه بصورة أشد حين وصـــف الشياطين بالكفر وجاءت صورة البخيل تجسد شدة حرصه وبخله على نفسه وعلى أهله بمن تشديده الى عنقه وقد نهى الله عن البخل حتى لا يحرم الانسان نفسه من نعم ربه عليه فى الدنيا •

سبحانك ربنا أنت الرحمن الرحيم فقد قدمت لعبادك ما يحقق لهم السعادة فى الدنيا والآخرة فالحمد لك حمدا يليق بجلال وجهـــك الـــكريم •

دعــوة للتأمل الايمــانى

بســـم الله الرحمن الرحيم :

قال تعالى « إن فى خلق الســماوات والأرض واختلاف الليــل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيــاما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هــذا باطلا ســبحانك فقنا عذاب النـــار » .

صــدق الله العظيم

ما تهــدى إليه الآيات :

بدأت الآيات القرآنية الشريفة بحرف « إن » الذى يشير الى :

١ ـ عظم ما فى خلق السماوات والأرض .

٢ ـ ضرورة التأمل والتدبر فى كيفية خلقهما ليهتدى الانسان الى وحدانية ربه .

٣ ـ واقعية القضايا التى ارتبط بها الحرف « إن » .

وقد ارتبط حرف « فى » بحرف التوكيد « إن » ليحدد القضــايا اليقينية التى يراها الانسان رؤية ملموسة .

وعقب الخالق العظيم بعد حرف التوكيد وحرف الجر بالقضية التى يدعو سبحانه عباده للتدبر فيها وهى « خلق السماوات والأرض » .

والمتأمل فى دعوة الخالق جل علاه يدرك أنها دعوة تشــمل الكون المحيط بالانسان فقد سخره الله سبحانه بكل ما فيه لعبــده وذلك من منطلق تكريمه لهذا المخلوق قال تعالى : « وسخر لكم ما فى السماوات والأرض جميعا منه »[١] وقال أيضا تبارك وتعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناها فى البر والبحر ... » فقد خلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض اذن :

١ — لخير عبده الانسان •

٢ — وهدايته •

٣ — تكريمه •

ولفظة السماوات تشمل النجـوم والكواكب وطبقات الغـلاف الجوى وقانون الجاذبية الذى ينظم حركة مخلوقات السماوات • ومن الجدير بالذكر أن مخلوقات السماوات يطبق عليها ما يطبق عـلى الانسان من لحظة ميلاد ونمو وتطور ثم وفاة فهى تمر بمراحـل الخلق الذى يمر بها الانسان فلها فترة طفولة ثم شباب ثم شيخوخة ثم انتهاء كما أنها عبارة عن مجتمعات وأسر ينتمى كل فرد الى أسرته ويدور فى فلكها ليؤدى مهمته التى كتبها الله عليه بلا خلل أو اضطراب علما بأن لكل مخلوق قدره ومنزلته ومكانته بين أفراد فلكه — وقد هدى الله عباده الى بعض حقائق السماوات وبعض أسرار خلقها فليعلم الجاحدون أنه قرآن كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل رب العالمين وليعلموا أيضا :

١ — أن الله هو الواحد المتفرد بالملك والملكوت فما ثبات منهج مخلوقاته جميعا على منهج واحد الا دلالة على وحدانيته سبحانه وتعـالى •

٢ — أن الذى جاء بالقرآن الكريم والذى اصـطفاه ربه هو الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم المتمم لأنوار الرسالات فهو الدرة المتألقة والروضة الفيحاء ذلك النبى الأمى الذى بلغ كلمات ربه الشريفة للعالمين تلك الكلمات التى جمعت بين الدنيا وما فيهـا من ماديات ومعنويات لكل زمان ومكان كما جمعت أحوال الآخرة وما فيها

---

(١) الجاثية : من آية ١٣ .

(٢) الاسراء : من آية ٧٠ .

أيضا من حياة مادية معنوية فقد جمع القرآن الكريم منهج الدنيا والآخرة وجعل الدنيا بما فيها يهدى الى الآخرة .

٣ — أن هداية الله للعلماء ليست عبثا بل من منبع حفظه جل علاه للقرآن الكريم « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »[1] وتكريمه لسيدنا محمد صلى الله عيه وسلم وأتباعه ، قال جل علاه : « إن نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » وقال جل شأنه : « ورفعنا لك ذكرك »[2] وقال أيضا سبحانه « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن دعوة الخالق للتأمل فى خلق السماوات تعطى دلالة على دعوة الاسلام للعلم القائم على البحث والاستنتاج والاستنباط ليهتدى الانسان الى خالقه هداية قائمة على اليقين الذى يجعل صاحبه يذوب حبا فى ذات الخالق العظيم فيسبحه تسبيحا يليق بجلاله وبما له من سلطان عظيم وهيمنة مطلقة وقيومية لا نهاية لها .

ودعوة الله لم تتناول السماوات فحسب بل أشارت الى البحث فى خلق الأرض أيضا والأرض تشمل المخلوقات المحيطة بالانسان إذن فقول الله تعالى « والأرض » يبين الضرورة الحتمية للبحث فى الانسان مادياته ومعنوياته كما أنها تفتح المجالات الكثيرة للبحث فى علم الجيولوجيا ، وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم البحار — الخ وقد هدى الله الانسان للبحث فى ذاته ومعرفة مكوناته المادية فعلم بهدايته تعالى أنه يتكون من مكونات القشرة الأرضية والغلاف الجوى وهذا يدل على :

١ — أن القرآن الكريم منزل من قبل العليم الخبير الذى أخبر

---

(١) الحجر : من آية ٩ .
(٢) الشرح : من آية ٤ .
(٣) آل عمران :من آية ١١٠ .

الانسان بحقيقة أصله فقال جل شأنه فى كتابه العزيز : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » صدق الله العظيم •

فكيف علم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الأمى بهذه الحقيقة التى هدى الله عباده اليها بعد نزول القرآن الكريم بزمان طويل •

فسبحان الله الذى له ملك السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر •

٢ — أن الأرض بما فيها ومن فيها مخلوقة لها فترة حياة ثم إنتهاء كالانسان فهو ابنها وما يطبق عليه يطبق على كل المخلوقات التى تضمها ثم يطبق عليها فكل شىء هالك الا وجهه الكريم •

أما قول الله تبارك وتعالى « واختلاف الليل والنهار » فهـو يشـير الى :

١ — هيمنة الله جل علاه على نظام الكون وقد ذكر الله الليل والنهار لأن اختلافهما ظاهرة جلية للانسان تهـدى الى وحدانيته سبحانه وقدرته المقتدرة قال تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غـير الله يأتيـكم بليـل تسـكنون فيـه أفلا تبصرون »[1] صدق الاله العظيم •

٢ — ذكر الله تعالى اختلاف الليل والنهار بعد ذكره تبارك وتعالى لخلق السماوات والأرض ويرجع ذلك الى أن اختلافها يرتبط بدوران الأرض حول نفسها هذا الدوران الذى يجعل نصف الكرة يواجه الشمس فيكون النهار بينما يكون النصف الآخر ليلا وباستمرار الدورة اليومية يتبادل النصفان الليل والنهار •

---

(١) طه : ٥٥ .

فهذا التعاقب الذى ذكره الله بعد خلقه للسماوات والأرض دعوة ربانية للبحث فى أسرار الكون والتأمل القائم على الاستنباط وربط الحيثيات مما يفتح مجالا واسعا لعلم الفلك والأرصاد ليهتدى الانسان باذن ربه الى طبيعة علاقة كوكب الأرض بغيره من مخلوقات الفلك .

وبعد دعوة الخالق العظيم للنظر والتأمل فى خلق النجـــوم والكواكب ورفع السماوات بغير عمد وخلق الأرض واختلاف الليــل والنهار قال تعالى ذكره « لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » .

بين الله فى كلماته الشريفة السابقة أن كل الظواهر الكونيـــة المعجزة المحيطة بالانسان تناجيه مرددة : « أنه الله الواحد الأحد الذى خلق كل شىء بقدر » .

فهى آيات وعلامات جلية دالة على وحدانيته تبارك وتعـــالى . ولكن لماذا ذكر الحق « لأولى الألباب » وهذه الآيات يدركها الجاحد والمؤمن ؟ يرجع ذلك الى أن الجاحد يدرك آيات ربه ادراك اليقين ولكن خبث نفسه وكفر شيطانه يجعـــله يصر على إنكار وحدانيته سبحانه عما يشركون أما المؤمن فيتفتح قلبه ويزداد ايمانه وتتعمق الصلة بينه وبين ربه فيسبح الله تسبيحا قائما على التوحيد فأصحاب الألباب هم أصحاب العقول المتصلة بقلوب طاهرة صافية نقية منتصرة على الشيطان وقد بين الله تبارك وتعالى أن أصحاب العقول هم الذين يذكرونه فى كل الأحوال وليس المقصود بالذكر ذكر اللسان فحسب بل المراد :

١ — أن يذكر الانسان ربه فى كل عمل يقوم به ويجعله دائما خالصا لوجه ربه الكريم .

---

(١) القصص ٧١ ، ٧٢ .

٢ — يأمل الانسان عظمة ربه فى كل شىء مخلوق حوله فيثنى على ذاته العليا بما يليق بها .

٣ — الايمان التام بأن اتحاد منهج الحياة فى السماوات والأرض دلالة على وحدانية الخالق .

٤ — أن الانسان السوى هو الذى يقف على آيات ربه فى نفسه وفى الكون فيهتدى ويدرك أنه خلق ليوحده سبحانه ويسبحه فى كل نبضة من نبضات قلبه .

إن أصحاب العقول هم أصحاب النفوس السوية والفطرة السليمة وقد كرر الله تعالى خلق السماوات والأرض فقال تعالى « ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض » هذا التكرار يبين أهمية التأمل والبحث فى الكون المحيط بالانسان ولذلك قال الله « يتفكرون » فالفعل المضارع يدل على استمرارية الحدث أى ضرورة الاستمرار فى التفكير والتأمل ذلك لأن التفكير أعظم سمة وهبها الله للانسان فيجب استغلالها من منطلق العبادة والطاعة لله رب العالمين .

وقد علمنا ربنا الواحد الأحد مقولة طيبة بعد كل تفكير وتأمل ألا وهى « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

إن قول الله جل شأنه (ربنا) جاء على لسان العباد بالنون الدالة على القائلين والمراد أننا جميعا عباده تعالى وهو تبارك اسمه رب المخلوقات الواحد الأحد وبالتأمل فى لفظة (رب) تجد أنها تشير الى معنى التربية الدقيقة الرفيعة المنظمة التى تدل على خلقه سبحانه المنهج التام الذى تسير عليه مخلوقاته فهو سبحانه المربى والمعلم لمخلوقاته فقد علمها كيفية المحافظة على حياتها وكيفية استمرارها كما علمها طبيعة التعامل والتعايش مع البيئات المختلفة سبحانك فأنت رب العالمين .

فعبارة (ربنـــا) تشـــير الى :

١ ـــ هيمنته التامة وقيومته المطلقة على عباده جميعا وهـــذا ما يقف عليه كل مؤمن فيرضى بالله ربا واحدا لا شريك له •

٢ ـــ تعبير المؤمن بصيغة الجماعة يدل على إدراكه التـــام لربوبية ربه على معنوياته ومادياته وعلى المخلوقات من حوله فهو بقول ربنا بلسانه الفردى مع كافة الأحوال المشاهدة المعجزة التى تدل على تربية الله لها أى أنت ربى ورب السماوات وما فيها ورب الأرض وما عليها فأنت ربى وربهم أى ربنا جميعا يقولها المؤمن بلسانه ولسان المخلوقات التى شاهدها دلالة على الايمان بوحدانية الله جل عـــلاه مع الثناء على ذات ربه : سبحانك •

هذا الثناء يبين ما يجب على الانسان تجاه عظمة ربه وقدرته اللا نهائية من تنزيه دائم ومستمر قائم على توحيده •

وقد عقب الله تعالى شأنه بتعليم عباده لضرورة الدعاء الذى يوثق الصلة بينهم وبين ربهم فقال تعالى : « فقنا عذاب النار » •

وقد جاء الدعاء يحمل لفظة الوقاية والوقاية تعنى تقديم الانسان للأعمال التى تحفظه وتصونه من الوقوع فى الضرر أو مس هذا الضرر له والمراد الدعاء بهداية الله لعباده فى حياتهم الدنيا لصالح الأعمال والأقوال لتكون درعا واقيا يحفظهم من أهوال يوم القيامة •

« تم بحمـــد اللـــه وتوفيقه »

القسم الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

((رَبِّ أوزِعنِى أن أشكُرَ نعِمتَكَ التى أنعمتَ علىَّ وعَلىَ والدىَّ وأن أعمَلَ صالحاً تَرضَاهُ وأدخِلنِى برحمَتِكَ فى عِبَادِكَ الصالحينَ))

صدق الله العظيم
النمل من آيه ١٩

تمهيد

إن الثمرة الحقيقية الطيبة لوجود الانسانى تتبلور فيما يقوم به الانسان من أعمال تتجاوب مع حركة الحياة فى تناسق وانسجام وترابط وتكامل — فقد خلق الله جل شأنه — الحياة الدنيا بكافة عناصرها ووضع لها القوانين التى تنظمها وجعل هذه القوانين تسير وفق المنهج الذى يضبط حركة الحياة وذلك بسر كن :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ »(*).

والانسان بتكوينه المادى والفكرى والوجدانى تتضامن عناصره السابقة وتخضع لقانون الله تعالى — فى النمو والتطور — الذى يحفظ توازنه فى مختلف فترات حياته الدنيا ويدل دلالة مادية ووجدانية على قدرة الخالق المهيمن الذى جعل فى مخلوقاته آيات للموقنين ومفاتح هادية يصل الانسان بها الى أبواب رحمته وفيض أنواره العليا ويقف على ينابيع إشراقاته الربانية فيحنه الرضوان وينعم بالنشوة والسكينة ويرتقى على مادته الطينية الى السمو الروحى الذى يستمد شفافيته النورانية من الله جل علاه .

لقد خلق الله تبارك وتعالى للانسان الحياة الدنيا وخلق له فيها كل الماديات التى تهديه الى القضايا الغيبية فعندما يأتى ميعاد مولده وبعثه للحياة الدنيا تعلن أمه الصيحة التى تدل على ذلك ويبدأ رحمها فى الانقباض والانبساط بأمر الخالق العظيم حتى يخرج للقاء دنياه

(*) يس آية ٨٢

وقد كان نطفة ثم علقة فمضغة ثم أنشأه الله خلقا آخر[١] ومراحل هذا التطور تخضع لقانونه سبحانه فلا خلل ولا عوج وعندما يصدر الخالق أمره بالخروج من الرحم لا يملك المولود رفضا أو قبولا ولا تملك الرحم إلا الطاعة قائلة لبيك ربى وهكذا نبعث من باطن الارض عندما يأمرها ربها باخراج أثقالها فتنقبض وتنبسط لتدفع من رحمها أولادها جميعا فقد أحصاهم ربهم وعدهم عدا[٢] • وسوف يبعثون من رحم أمهم الكبرى بنفس الصفات الشكلية والوجدانية بلا تدخل منهم كما خرجوا الى الدنيا من رحم أمهم الصغرى بأمر ربهم • إن قضية الخروج من رحم الام هى نفســها قضية البعث والنشور من رحم الارض ، بل إن خروج الانسان من رحم الام جاء من عدم من ماء مهين أما خروجه من الأرض فهو أهون لوجود عناصره التى تكون منها وهذا معنى قوله جل علاه :

« وَهُوَ الذى يَبْدأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعيدهُ وهوَ أهوَنُ عَلَيهِ »[٣].

ولفظة أهون يهدى بها الله جل شأنه عباده لثبوت قضية البعث وكيفية حدوثها فى علمه الازلى • إن لفظة أهون تذكرة للانسان تجعله يردد بفطرته وفكره إن من خلقنى من عدم لقادر على بعثى من جديد •

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . صدق الله العظيم
(المؤمنون ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

(٢) المعنى مقتبس من سورة مريم :
بسم الله الرحمن الرحيم « لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا » . صدق الله العظيم
(مريم ٩٤ ، ٩٥)

(٣) الروم من آية ٢٧

إن الله تبارك وتعالى هدانا فى الدنيا بقضـــايا مادية لتستجيب الفطرة السوية والفكر السليم لتصديق القضايا الغيبية التى يخبر عنها الخالق جل علاه فقد خلق انا الدنيا وجعل الموت والحياة دليلين على واقعية القضايا الغيبية التى خلقها لتهدينا الى الحق .

وقد ذكر الله القضايا الحسية والغيبية فى القرآن الكريم لعباده ليكون هذا الكتاب القبلة الهادية لهم فى دنياهم والتى تثمر ثمار الرضا برب المخلوقات جميعا فيجعلوا دنياهم القصيرة المزرعة التى يحصدونها يوم القيامة فى حياتهم الخالية وتذكر أيها الانسان أن كل شىء أمامك يقوم على مقدمة ونتيجة ودنياك هى المقدمة لك والنتيجة فى آخرتك .

ولقد دفع الرحمن الرحيم عن عباده الاحساس بالحيرة فهداهم لمنهج الدنيا وأخبرهم عن طبيعة حياتهم فى الآخرة فخص بعض سوره بعرض مشاهد يوم القيامة يوم إعلان النتيجة الحقيقية لكل نفس يقع عليها الحساب ومن هذه السور الكريمة سورة الواقعة .

التعريف بسورة الواقعة :

تناولت سورة الواقعة قضايا يوم القيامة فى عرض شامل يعتمد على تجسيد المشاهد وبث الحياة الناطقة فيها لتستقبلها الفطرة السوية والمؤمنة برضا وثقة وتقف على عدل ربها وفيض رحمته وأنه تبارك وتعالى لا يستوى عنده الاعمى والبصير ولا من جعل الدنيا غايته أى مقدمته ونتيجته وبين من نظر اليها كوسيلة لحصول غايته ألا وهى رضوان ربه ورضاه .

وسورة الواقعة مكية وهى سبع وتسعون آية وقيل هى مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة المنورة وهى قوله تعالى « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

وقيل فى سورة الواقعة من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة

وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم أنه قال : سورة الواقعة سورة الغنى فاقرءوها وعلموها أولادكم[1] .

والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم « لم تصبه فاقه — وأنها سورة الغنى » أن من يتلوها وقلبه مؤمن بوحدانية ربه وبما لذاته العليا من اشراقات نورانية وبركات رحمانية يفيض الله عليه بالاطمئنان والسكينة ويفجر فى نفسه ينابيع الرضا فيتقبل القدر بالشكر والحمد ولا يجد فيه مكروها بل يشعر دائما بأن ما نزل به ما هو إلا ارتفاع لشأنه ولدرجته عند ربه فيمعن فى الحمد والثناء برضا فى أشد المواقف فلا يتزعزع ايمانه ولا يفتر حمده وشكره ورضاه بربه فما رضاه بربه الا رضا بما كتبه عليه هذا الثبات الايمانى هو الغنى الدائم فى أرقى درجاته فالمراد اذن بمعنى « لم تصبه فاقه — وأنها سورة الغنى » ليس الماديات بل الغنى النفسى والتفتح الوجدانى وشفافية المشاعر والرضا المستمر بالله جل علاه فلا فزع ولا اضطراب إن من يقرأ سورة الواقعة وقلبه مطمئن بوحدانية المدبر يظل فى رحاب رضوانه فلا يمسه الشيطان وهو الفاقة الكبرى والفقر المدمر لمعنويات الانسان .

علاقة سورة الواقعة بسورة الرحمن :

تتصل سورة الواقعة بما قبلها وهى سورة الرحمن اتصالا جوهريا فسورة الرحمن تتحدث عن خلق الانسان وإعداده الاعداد الذى ييسر له سبل التكيف مع الكون كما تحدثت عن آلاء الله التى وهبها لعبده الانسان وهى آلاء دنيوية حسية تهدى الى وحدانية الله جل علاه كما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ١٩٤ — احياء التراث — بيروت طبعة ١٩٦٦ .

، روح المعانى : الالوسى ج ٢٧ ص ١٢٨ — دار احياء التراث — بيروت .

تضمنت سورة الرحمن أمورا غيبية منها : خلق الجان من نار وعلامة من علامات يوم القيامة وبعض أوصاف الجنة فسورة الرحمن تبرز النعم الحسية الدنيوية والتى تعد المقدمة التمهيدية للنتيجة الحتمية يوم القيامة ولذلك عقب الله تبارك وتعالى بعد سورة الرحمن بسورة الواقعة التى تناولت الجانب الغيبى فأخبرت عن كيفية النتيجة لكل انسان وهى نتيجة مرتبطة بدرجة استقباله لسبل الهداية وطبيعة تجاوبه مع المقدمات التى يتوقف عليها تقديره يوم القيامة •

إن سورة الرحمن تحدثت عن الرحمة وسورة الواقعة حذرت من الانحراف عن المنهج فالصلة بين السورتين هى الصلة بين المقـــدمة والنتيجة فسورة الرحمن بيان انعم الله التى تدعو للايمان بوحدانية الخالق وسورة الواقعة هى الجزاء الناتج عن موقف الانسان •

سبحانك ربنا رحمتك سبقت غضبك[1] فسورة الرحمن هى رحمتك لعبادك وسورة الواقعة هى التحذير الذى يسبق الغضب على المنحرفين عن المنهج •

---

(١) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتى سبقت غضبى » •
الأحاديث القدسية — النووى — تحقيق مصطفى عاشور •

ساقط من اصل المصدر

ساقط من اصل المصدر

ساقط من اصل المصدر

— عرض لبعض أشراط يوم القيامة يتضمن الاشارة الى : —

— أصحاب الميمنة .

— أصحاب المشأمة .

— السابقون .

وبدأت سورة الواقعة بتذكير الانسان وتحذيره من وقوع أحداث القيامة بغتة وفى ذلك دعوة من ربه الرحمن الرحيم ليستعد الانسان فى دنياه الاستعداد السلوكى والمعنوى الذى يحميه من أهوالها فقال جل علاه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » .

يخبر الله جل علاه عباده بثبوت أحداث يوم القيامة ووقوعها فى ميقات معلوم عنده تبارك وتعالى فعلى الانسان التصديق بما أخبره به ربه لأنه سبحانه صاحب الملك والملكوت المتفرد بأمر مخلوقاته فكما أن الاولى له بكل حيثياتها فكذلك الآخرة وحرف إذا جاء لبيان الميقات المحدد المعلوم عند الله سبحانه وتعالى فقوله تعالى إذا وقعت ... يعنى عندما تقع ويحل ميقاتها وقد جاء الفعل ماضيا « إذا وقعت الواقعة » لأن أحداث القيامة خلقت وسجلت فى علمه الأزلى وقد سماها الله الواقعة لتوثيق الأثر النفسى بين الفعل والفاعل وقد نقل الفعل والفاعل للاحساس البشرى هول الأحداث التى تذهل الأبصار والأسماع فالتسمية « الواقعة » تدل على كثرة ما يقع فيها من شدائد

وأهوال[1] وهذا التعبير القرآنى الكريم نعبر به عندما نشعر بهول موقف ما فى حياتنا الدنيا فنردد ما أشد الواقعة ؟ !

إن التعبير القرآنى « وقعت الواقعة » يحمل بين طياته ما لهذا اليوم من احاطة الأهوال وشمولها لجميـــع الأجواء فالجملة تعكس بتكوينها الصوتى الأثر النفسى مع تعدد الأهوال وجاءت الآية الثانية « ليس لوقعتها كاذبة » مؤكدة لدلالة الآية الأولى أى عندما تقع الواقعة ويرى الانسان أهوالها يقينا لا يكذب بها وكيف ينكر وهى محيطة به وفى هذه اللحظات :

١ — يتذكر ما أخبره به ربه من قبل ٠

٢ — يدرك أن ما كان فى دنياه من كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين والفيضـــانات والطاقات النارية المروعة جعلها الله تحاكى ما سيحدث فى عالم الحقيقة عالم القيامة ٠

ونفى الكذب فى الآية « ليس لوقعتها كاذبة » يخبر بواقعية الأحداث مع الاستسلام التام ٠ وبعد أن أخبر الله جل شأنه بثبوت وقوع الأحداث ذكر تعالى ذكره الاشارة الأولية التى تنتج عن وقوعها فقال « خافضة رافعة » والآية الكريمة تدل على أمرين أولهما معنوى وثانيهما مادى :

أولا — الدلالة المعنـــوية :

تظهر هذه الدلالة عندما يصدر الخالق أمره لوقوع الواقعة حيث تستجيب الأرض طائعة فتخرج أولادها من رحمها فى لحظة واحدة بكمال تكوينهم الذى كانوا عليه فى دنياهم ويندفع البشر جميعا لأرض الحساب وفى ذلك الوقت تنخفض مكانة الكفار وترتفع مكانة الأبرار

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٤ ، ١٩٥ احياء التراث — بيروت طبعة ١٩٦١ ٠

فالارتفاع والانخفاض يتعلق هنا بالمنزلة والمكانة . وقد ربط الحق جل علاه بين الواقعة وبين طبيعة المنزلة لان فى هذا اليوم العظيم توضع كل نفس فى مكانها الحقيقى فقد كان الكفار يتمتعون ويضحكون ويسخرون من الذين آمنوا فقد غرتهم الدنيا وظنوا أنهم الأعلون فكان أول جزاء لهم خفض شأنهم الذى ارتفع فى الدنيا . هذا الخفض الذى يكتسى بالهــوان يقابله ارتفاع المنزلة وسمو الشأن للأبرار الذين يتســمون بالبشر والسكينة وتنبثق الانوار الربانية لترحب بهم فقد أصبحوا هم الاعلون .

ثانيا — الدلالة المــادية :

أما الدلالة المادية التى تشير اليها الآية الكريمة « خافضة رافعة » فتهدف الى الانقلاب الكونى الهــائل حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات فيتحرك كل مخلوق من مكانه باذن ربه فتنخفض بعض المخلوقات التى نراها فى دنيانا مرتفعة لانتهاء مهمتها كالنجوم والكواكب والجبال ويتحرك باطن الأرض ويرتفع لتخرج الأجساد البشرية حية باذن ربها وهذا الارتفاع يشبه ارتفاع بطن الأنثى عندما يكتمل جنينها ويحين ميعاد ميلاده .

وقد عبر القرآن الكريم باسم الفاعل « خافضة رافعة » مما يتبادر الى الفكر البشرى ويظن أن القيامة هى الفاعلة لكل مظاهر الانخفاض والارتفاع والمراد أن القيامة تفعل ما يصدر اليها من أوامر الخالق العظيم وقد جاء التعبير بالمجاز على العادة[٣] المتعارف عليها بين الناس الذين يربطون الأحداث بالأسباب الظاهرة فعندما يحدث

---

(٣) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — احياء التراث — بيروت ١٩٦٦ .

ذكر القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٦ أن خافضة رافعة وردت باسم الفاعل من باب المجاز على عادة العرب .

زلزال فى منطقة ما وينتج عنه آثار عدة نقول تسبب عن الزلزال تهدم المبانى وتشريد أهل المدينة ... الخ ونحن ندرك تماما أن المسبب الحقيقى للزلزال وآثاره هو الله المتفرد بالأمر والنهى ولن يحدث تغير لأى مخلوق فى الدنيا أو الآخرة الا بقانون الله وهيمنته .

وقد انتقلت الصورة من الاخبار بوقوع الواقعة وما يصاحبها من انخفاض وارتفاع الى تصوير مظهر مادى آخر لوقوعها فقال جل علاه :

« إذا رجت الأرض رجا » كشف الفعل رجت عن كيفية اهتزاز الأرض لتدفع من بطنها أولادها دفعة واحدة والرج يعطى معنى الاهتزاز العنيف الذى تقوم به الأرض باذن ربها وهى حركة ليست عبثا بل خلقها الله لتكون سببا فى تجميع عناصر الانسان التى تناثرت عبر الأجيال واختلطت بعناصر أخرى فالرج نداء من الله يأمر فيه الأرض والعناصر الانسانية بأن تعود كما كانت فى دنياها فلا يتحد عنصر فى جسد أجنبى عنه ولا تختلف النسبة التكوينية لجسد عما كان عليه فى دنياه .

إن الرج ليس عشوائيا بل حدث لاكتمال هيئة الانسان وما ذلك الا بأمر « كن » وتذكر أيها الانسان أن بعض الناس مات ممزقا ودفن كل جزء منه فى مكان بعيد عن الآخر هنا ندرك أن الرج دعوة « كن » لاتحاد الأجزاء التى تكون الصفة الذاتية لكل إنسان على حده .

إن الله تبارك وتعالى لقادر على اعادة الانسان بأمر « كن » فلماذا ترج الأرض لتدعو العناصر البشرية لتكتمل ويخرج الانسان لأرض الحساب ؟ إن الله تجلت قدرته رحمن رحيم يرفق بعقل عبده ويعلم درجة استيعابه ولذلك بين له سبحانه كيفية خروجه من باطن الأرض حتى لا يقع فريسة للشيطان ويطمئن قلبه كما أن الخالق جل علاه يعلم عبده اتخاذ الأسباب فى الدنيا .

وقد ارتبط الفعل رجت بالأرض ليخبر الله عباده بطبيعة الحركة التى تتصف بها الأرض عندما تقع الواقعة وقد نقل المفعول المطلق رجا مضاعفة الحركة الأرضية التى تسرع فى تلبية الأمر الندائى الربانى وقول الله تبارك وتعالى « إذا رجت الأرض رجا » له مظاهره الواقعية فى دنيانا والتى تهدى إلى كيفية وقوع « الرج » المؤدى الى اتحاد العناصر وذلك بوقوف الانسان على عدم اندماج المادة التى لها خاصية مع مادة غريبة عنها .

وقد ربط الله جل علاه بين الفعل الماضى « رجت » وبين حركة الأرض وفى هذا قمة الهداية الربانية للعقل البشرى بوجه عام فالأرض واقع ملموس لنا منها خلقنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى والعقل البشرى فى طفولته رأى قضية عودته إلى الأرض وهى قضية واقعية لم يجادل فيها أحد الى أن أعد الله العقل لاستقبال قضية الخلق من طين فهداه سبحانه اليها فأصبحت أيضا قضية واقعية تهدى لوحدانية القائل وتفرده فى ملكه جل شأنه(٤) . وبعد رج الأرض ذكر

---

(٤) بسم الله الرحمن الرحيم : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى » صدق الله العظيم (طه آية ٥٥) .

لقد هدى الله جل جلاله عباده الى حقيقة خلقهم من طين فتوصلوا الى أن جسم الانسان مكون من القشرة الأرضية والغلاف الجوى ومن عناصر تكوينه « الاكسجين والكربون والايدروجين والكالسيوم والفسفور والكبريت والماغنسيوم والمنجنيز ... الخ » .

وبهذه الهداية الالهية اصبحت قضية البعث واقعية حيث تناسب العقل البشرى فى طوره الحديث . اذن فقد علم الانسان واقعية خلقه من طين بعد علمه بواقعية عودته الى الارض فأصبحت قضية بعثه فى حكم الواقع اليقينى فهو لم يخلق نفسه من طين ولم يبتكر كيفية دفنه بل هداه ربه بالغراب كما نعلم من سورة المائدة « فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه » صدق الله العظيم (من آية ٣١)

راجع القرآن والاعجاز فى خلق الانسان — د. الطبيب طاهر توفيق ص ١٧ بتصرف .

خلق الانسان من علق : د. رشاد الطوبى سلسلة اقرا ص ١٨ دار المعارف — تحدث الكاتبان عن عناصر تكوين الانسان .

الله تعالى حالة الجبال يوم الواقعة فقال سبحانه « وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا » .

وبهذا أعطى الخالق العظيم صورة تقريبية للعقل البشرى فبين سبحانه الطبيعة التى ستكون عليها الجبال تلك الجبال الصلبة الشامخة تنهار وتتفتت فتصير غبارا وما تحولها الا استجابة لأمر ربها العزيز القهار . لقد خلق الله الجبال لحفظ توازن الأرض وثبتها بالأوتاد التى تعد جذورا لها وهذا ما اهتدى إليه العلماء حديثا بمشيئة ربهم[٥] .

إن هذه الجبال التى خلقت لاداء مهمة محددة فى الحياة الدنيا سخرها الله تعالى للانسان ينحت فيها الأنفاق نحتا عنيفا فيستخدم الوسائل المختلفة فى تفجير ما يريد بمشيئة ربه وقد لا يستطيع حفر بعض الجبال لبعدها العظيم عن مناطق العمران أو لصعوبة تفجيرها . إن الله جل علاه سخر بعض الجبال لارادة الانسان وسخر بعضها الاخر لحفظ توازن الأرض[٦] وهو أيضا تسخير منه تعالى لحفظ حياة الانسان واستمرارها . وتسخيره جل علاه لارادة الانسان ليس عبثا بل ليفجر أجزاء منها ويرى كيفية تحولها من الصلابة والشموخ الى

---

(٥) د. منصور حسب النبى — الكون والاعجاز العلمى للقرآن — دار الفكر ص ١٨٣ بتصرف .

(٦) ذكر الخالق العظيم فى القــرآن الكريم اختلاف طبيعة الجبال « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود » صدق الله العظيم (فاطر من آية ٢٧) .

والآية تدل على اختلاف المواد التى تكون الجبال فالجبال البيضاء تتكون اساسا من الطباشير والحجر الجيرى والجبال السوداء بها المنجنيز والفحم والحمراء بها الحديد وغير ذلك من الجبال النارية التى تتكون من الجرانيت والبازلت والتى تحتوى على عروق الحديد والنحاس والذهب .

د. منصور حسن النبى — الكون والاعجاز العلمى — دار الفكر ص ١٧٩ بتصرف .

الغبار المتطاير هذه الرؤية الواقعية لبعض أجزاء الجبال وهى تتفجر هداية من الله جل علاه ليتصور الانسان بصورة قريبة من واقعه حال الجبال يوم القيامة .

إن تفجير جـــزء من الجبال فى الدنيا يزلزل الأرض المحيطة به زلزلة عنيفة ويحدث أصواتا صاخبة ويحجب الرؤية فى منطقة الانفجار هذا فى الدنيا الصغيرة فما بال أهوال الآخرة وحال الجبال فيها وهى تتفجر جميعها فى لحظة واحدة عندما تقع الواقعة وترج الأرض رجا وتبس الجبال بسا لتكون هباء منبثا[٧] .

وقد أعطى الله سبحانه المراحل التى تمر بها الجبال عقب الانهيار فالمرحلة الأولى مرحلة الغبار الناتج عن التفتت والذى ينتشر وتتطاير ذراته لتحيط بالأرض والمرحلة الثانية مرحلة الانتشار أن الله تعـــالى ذكره بين لعبده التحول المنطقى الواقعى لنسف الجبال وهداه فى دنياه لهذه المراحل المتعاقبة فالتفتت يعقبه الغبار يعقبه الانتشار السريع ونحن نقف على هذه المراحل عندما نرى تفجير جزء من الجبال بالمتفجرات الحديثة[٨] .

وتنتقل المشاهد التى تصور أحداث القيامة الخاصة بتغير قانون الأرض إلى المشاهد الخاصـــة بموقف البشر بعد حدوث الواقعة :

---

(٧) بست : أى فتتت ، هباء : غبارا وهو أيضا الشعاع الذى يكون فى الكوة . والهباء المنبث : الرهج الذى يسطع من حوافر الدواب .
منبثا : متفرقا .

دوح المعانى — الألوس — ج ٢٧ ص ١٣١ — احياء التراث — بيروت والجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ١٩٧ احياء التراث — بيروت طبعة ١٩٦٦ .

(٨) نشاهد هذه الرؤية عندما ينقلها القمر الصناعى الى الشاشة الصغيرة .

« وَكُنتُم أَزْوَاجاً ثَلاثَةً فأصحَابُ المَيمَنَةِ ما أصحَابُ المَيمَنَةِ وأصحابُ المَشأمةِ ما أصحابُ المَشأمةِ والسابِقونَ السابقونَ أُولئكَ المُقرَّبُونَ » .

صدق الله العظيم

والآيات السابقة تخبر عن الأوضاع الحقيقية التى ستكون لعباد الله من لدن آدم عليه السلام إلى لحظة قيام الساعة فعندما تتصدع الأرض عن طريق الانقباض والانبساط يتدفق الناس جميعا كالفراش المبثوث إلى أرض الحساب بمشيئة ربهم الواحد الأحد يقفون أمامه جل علاه فى صفوف ثلاثة لكل صف درجته التى مهد لها فى دنياه وهذا التقدير الذى أخبرنا به الخالق العظيم نسير عليه فى جميع أمور حياتنا فلكل شىء وضعه ومقامه وقد علمنا العليم الخبير اختلاف التقدير بين الامور لنقف على قيمة الأعمال وأهميتها فهناك عمل يقدر بدرجة ممتاز وآخر بجيد وآخر يكون نصيبه الاخفاق التام وتعليم الخالق لنا فى دنيانا القصيرة ليس عبثا بل ليحاكى الواقع الحقيقى فى الحياة الخالدة بعد البعث ويكون تقسيم الله لعباده واقعيا قريبا من تفكيرهم .

وقد بدأ الله تبارك وتعالى فى تقسيم عباده بقوله « وكنتم أزواجا » وحرف الواو يدل دلالة واضحة على تكون هذه الأزواج عقب تغيرات الكون مع بيانها لأحوال الفئات الثلاث وقد جاء الفعل ماضيا « كنتم » لثبوت الهيئات ووقوعها فى علم الله تعالى الذى يعلم المتقدم والمتأخر من عباده فما خلقهم جميعا ولا بعثهم إلا كنفس واحدة أما لفظة أزواجا فتعطى دلالة على وجود مرافق لكل انسان يصطحبه لارض الحساب وما هذا المرافق إلا عمله الذى يتجسد يوم القيامة فيكون طيبا حسنا إذا كان من أهل الجنة أو يكون قبيحا خبيثا اذا كان من أهل النار وعمله هذا هو الشهيد عليه الذى ينطق بالحق ويعيد عليه مسلكه فيراجع عليه أقواله وأفعاله محددا الزمان والمكان الى درجة تدهش الانسان وقد استقدر الله عباده على تسجيل صورهم وأصواتهم ومحافلهم

واسترجاعها وفق ارادتهم ليهديهم الى واقعية عودتهم والانسان فى دنياه لا يعيش بجسده فقط بل يقترن به سلوكه ليصبح هو وعمله زوجا ونحن فى حياتنا الدنيا نشعر بواقعية لزوم العمل لصاحبه فنصف الملتزم فى سلوكياته بالحسنى ونصف غير الملتزم بالخبيث بل نرى طبيعة العمل على وجه صاحبه وما هذا الادراك اليقينى الذى يربط بين الانسان وعمله الا تربية ربانية من الخالق لعباده ليعلموا أن الاقتران ضرورة فاذا كان هذا فى الدنيا فكيف لا يقترن الانسان بعمله فى دار الحق ودار الخلد وكيف لا يتجسد ليكون أداة تكريم أو ادانة لصاحبه بصورة علانية أمام البرية جميعها والملائكة الكرام عليهم السلام •

يسير الطوفان البشرى بأقسامه وكل انسان يقترن بعمله فهناك :

(أ) أصحاب الميمنة :

وهى الفئة التى تشرق وجوهها وتقبـــل على ربها اقبالا سريعا فتطوى أرض الحساب فى شوق لرؤية أنوار حبيبها جل علاه تشرق مستبشرة ناضرة الوجه تعلوها نفحات الأنوار القدسية تسير هذه الفئة الى خالقهـــا مكبرة تكبيرات الفـــوز وكيف لا وهم أصحاب المنزلة الشريفـــة •

(ب) أصحاب المشأمة :

يتحركون وكأن أرجلهم مقيدة بالأغلال تنطق ملامحهم بالخوف والرعب والفزع يعلوها الغبرة يساقون الى أرض الحساب سوق المهانة والذلة ويجرون على وجوههم ومعهم عملهم القبيح الخبيث الذى بنى على الشرك بالواحـــد الأحد يجرون وهم يصيحون صيحات النـــدم والحسرة يا ليتنا كنا ترابا ويضاعف من حسرتهم رؤيتهم لاصحاب الميمنة ومنزلتهم •

(جـ) الســـــابقون :

وهى الفئة الربانية التى ذابت عشقا فى حب حبيبها الأعلى وعاشت حياتها الدنيا تغوص فى بحار عطاياه وهامت أرواحها فى ملكوت أنواره العليا فتجلى عليها سبحانه بفيض رحمته إنها الفئة التى تخرج أنفاسها شوقا اليه ويعود شهيقها ليضاعف الحنين وفى كل زفير وشهيق تناجيه سبحانك اكتملت أنوارك ، سبحانك تقدست فى مكانك ، سبحانك تباركت فى ملك وملكوتك •

انها الفئة التى تسعى وتعمل فى كل مجال ولا تنتظر المقابل الدنيوى ولا تشرك بربها أحدا تأتى هذه الفئة المحبة لجلال ربها المؤمنة بتفرده جل علاه فى خلق الأسباب — وقد حفتهم الأنوار القدسية تحيط بهم الملائكة مرحبة مهنئة وبسير بجانبهم عملهم مشرق الوجه حسن الهيئة متوج بالرضا الربانى تكاد الملائكة الموكلة بهم من فرط النشوة تحملهم وتنطلق بهم انطلاقا سريعا الى روضة ربهم وفى أثناء سيرهم يتلقون التهانى فتلهمج ألسنتهم بالثناء على ربهم والشكر لعظيم مننه •

ان الفئات الثلاث (أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون) لا تخرج عن منهج حياتنا المحلية بل والدولية فهى معايير وضعها الله تعالى للدنيا والآخرة فسبحانه الواحد الاحد المتفرد بقانون خلقه فى الأولى والآخرة •

سبحانك لم تخلق قانونا فى الدنيا عبثا بل كل ما فى الدنيا يهدى لواقعية ما فى الآخرة مع الاختلاف فى الكم والكيف •

وقد جاء التعبير القرآنى عن أصحاب الميمنة(٩) وأصحاب المشأمة مقترنا بالحرف « ما » الذى يدل على عظم ما يخص كل فرقة فأصحاب الميمنة لهم النعيم العظيم الذى يليق بجود الكريم ودرجة رحمته . وأصحاب المشأمة لهم ما يناسب كفرهم وجحودهم وشدة ظلمهم فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فاستحقوا ما كتب عليهم من ألوان العذاب المهين القائم على عدل الله سبحانه وتعالى . ان جزاء أصحاب اليمين يفوق أى تخيل فهو جزاء يتسم بالجود الالهى والرحمة الربانية أما جزاء أصحاب المشأمة فهو الجزاء العادل فالحرف « ما » يرتبط بالمراد المعنوى والمادى ارتباطا نفسيا ويدل على ماهية درجة الجزاء وشموله فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين أى ما أعظم درجة تكريمهم نفسيا وماديا وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال أى ما أشد ذلتهم النفسية وعذابهم الجسدى الذى لا يحيط به تصــور . إن أصحاب اليمين لهم الكرم والرحمة وأصحاب المشأمة لهم العدل . لقد ربط الله تعالى ذكره بين الفئتين وبين حرف « ما » الذى يدل على عظم

---

(٩) وأصحاب الميمنة هم للذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنــة وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار .

واليمين من اليمن والشمال من الشؤم ويقال : إن أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين اخرجت الذرية من صلبه اى هم الذين اخذوا من شق آدم الأيمن وأصحاب المشأمة الذين اخذوا من شق آدم الأيسر .

وقيل أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة وأصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر .

والواقع أن أصحاب اليمين ســموا بذلك لبركة أعمالهم وتقــدمهم بالخيرات .

راجع الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ١٩٨ — دار احياء التراث — بيروت — طبعة ١٩٦٦ .

الجزاء أما الفئة التى لها رضوانه جل علاه فقال عنها : « السابقون السابقون » ولم يأت معها حرف ما لأن هذه الفئة الربانية لها عند ربها من الجزاء ما يفوق أصحاب الميمنة وما جعله الله سرا من أسرار عطاياه كما أن الله منّ على هذه الفئة برضوانه الذى لا يمكن الاشادة إلى درجة عظمته بحرف ما وقد جاء تكرار لفظة (السابقون) موضحا لما ينتظر هذه الفئة من آلاء عظيمة وخيرات يتفردون بها ولما لهم من منزلة سنية رفيعـــة .

الفصل الثانى

المشـــــاهد التصـــويرية للســـــابقين

المشـــاهد التصـويرية للســابقين

بدأ الله تبارك وتعالى بذكر ما للســابقين من آلاء عظيمة فقال جــل علاه :

« والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أولئِكَ المقرَّبُونَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ وقليلٌ مِنَ الآخِرِينَ على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأكْوابٍ وأبارِيقَ وكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنزِفُونَ وفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ولَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأمْثَالِ اللؤْلُؤِ المكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كانوا يعملونَ لا يَسْمَعُونَ فيها لغْواً ولا تأثِيماً إلا قِيلاً سَـلاَماً سَـلاَماً » .

صدق الله العظيم

بدأت الآيات الشريفة التى تتحدث عن السابقين بحرف (الواو) الذى يدل على شرف حالهم وسمو قدرهم وارتفاع شأنهم فقول الله والسابقون أى ما أعظم شأنهم • وقد عقب الله بعد الواو بالسابقين وهى الفئة الأولى التى ذابت عشقا فى أنوار ربها • وذكر علماء التفسير أن السابقين هم الذين سبقوا الى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ومن السابقين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار الذى ذكر فى يس وعلى بن أبى طالب كما ذكروا أن السابقين هم الأنبياء عليهم السلام والأوائل من المهاجرين والأنصار • أو هم الســـــابقون إلى الصـــلوات الخمس والى المســـاجد وهم أيضــا

السابقون الى أعمال التوبة وأعمال البر وهم أهل القرآن الكريم[1] .

والواقع — والله أعلم — أن المراد بالسبق بيان موقف هذه الثلة من الطاعات المختلفة ودرجة إقبالها وتمسكها واستمرارها فى أداء الطاعات فهم يسارعون فى الخيرات ابتغاء وجه ربهم الواحد الأحد ولا ينتظرون الجزاء الدنيوى ولا يقتصر السبق على أداء الأركان الخمسة وأداء النوافل أو طلب العلم فى مجال العلوم الشرعية فقط بل السبق فى كل مجال دنيوى خلقه الله والفيصل نية الانسان فالسابق الربانى يؤمن إيمانا راسخا أن سعيه من الله واليه جل علاه ويؤمن أن لربه الاولى والآخرة فينطلق يسعى راضيا ويجتهد فى سعيه فتشرق روحه إشراقات نورانية ربانية تضفى عليه النشوة والاطمئنان والسكينة فالسابق لا يبدأ عملا فى أى زمان ومكان الا سبقه بذكر الله ايمانا واحتسابا ورغبة صادقة لنيل رضاه سبحانه وإذا أحب كان حبه لله وإذا أبغض كان شعوره خالصا لوجه الله وحده والسابق بهذا يدرك بوعى وبصيرة أن دنياه عبارة عن منهـج مرتبط بالله الواحد الأحد وخالصة لذاته العليا فكل ما فيها من عمل ومرح واسترخاء ونوم لله فالسابق يعد كل نبضة من نبضات حياته المادية والوجدانية اعدادا خالصا لربه فيذكره سبحانه ويثنى عليه بما يليق بجلال وجهه فيذوب السابق عشقا فى الحق جل علاه ويتضاعف شوقه لذكر الله كلما شعر بحلاوة الفناء فى ذات ربه فيمعن فى الاخلاص والسبق فى كل عناصر منهج حياته .

وتكرار لفظة « السابقون » فى قوله تعالى « السابقون السابقون »

---

(١) روح المعانى : الالوسى جـ ٢٧ ص ١٣٢ — احياء التراث — بيروت . ذكر القرطبى : أن السابقين هم السابقون الى الايمان من كل أمة او هم السابقون الى الجهاد او هم السابقون الى التوبة واعمال البر وذكر ان ابا بكر وعمر رضى الله عنهما من السابقين .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٩ — احياء التراث — بيروت .

يدل على ما لهذه الفئة من مكانة شريفة عند ربهم وهو أيضا حث على تحصيل هذه المكانة ودعوة ربانية من الله لكل عباده فهو المليك المقتدر الذى لا ينقص ملكه مهما وهب لعباده فخزائنه سبحانه عظيمة عظم خالقها تبارك وتعالى .

وقد قيل عن السابقين « اذا خرج الرجل منهم من منزله فى الجنة كان له ضوء يعرفه من دونه »[٢] .

ولما لهذه الفئة السابقة من منزلة رفيعة قال عنهم ربهم « أولئك المقربون » أى أولئك الذين يستمتعون بالأنوار الربانية والاشراقات القدسية فهم أصحاب أعلى درجات الفوز العظيم ألا وهى المتمثلة فى القرب من ربهم والتمتع برضوانه انها الفئة التى تنكشف لها الحجب فتقترب من ذات القدس وفق مشيئته جل علاه فالمقرب من السابقين يرى رضوان ربه وهذا قمة الفوز المبين ولا تعادل الجنات جميعها لمحة من رضوانه تعالى[٣] .

إن السابقين جندوا أنفسهم لله فهم يذكرونه قياما وقعودا وعلى جنوبهم وقد أدركوا إدراك اليقين أن مقاليد الأمور لله وحده فهو خالق الاسباب والمسببات فمن الله عليهم بمنيتين :

أولهما : القرب من ذات قدسه وذلك بنيل قدر محدد من أنوار رضوانه سبحانه ولفظة (المقربون) دلت على أن رؤية رضوان الله بقدر ومرجع ذلك رحمته سبحانه بعباده فى جوده وعطاياه ذلك العطاء المقدر يدل على عودة البشر يوم القيامة بنفس خصائصهم الوجدانية

---

(٢) الجامع لاحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢٠٠ — احياء التراث — بيروت .

(٣) قال بعض العلماء : ان اكبر اصناف الكرامة رؤية الله تعالى وهذا معنى قوله سبحانه « واحل عليكم رضوانى » .

الأحاديث القدسية — اللجنة الاسلامية — دار الحديث — ج ٢ ص ١٧٦ .

وقدراتهم الاستقبالية التى كانوا عليها فى الدنيا فلقد أخبر المليك المقتدر بأنه سيعيد عباده يوم البعث بنفس صفاتهم الشكلية والوجدانية(٤) فمن الواقعية للفكر البشرى أن يكون النعيم المعنوى للسابقين يناسب استعدادهم البشرى الذى كونهم به الخالق العظيم ولذلك قال الله عن السابقين « أولئك المقربون » أى مقربون من رؤية أنواره بقدر ٠

ثانيهما : جنـــات النعيم :

وقد وصف الحق تبارك وتعالى جناته بالنعيم والمراد أن ما فى هذه الجنات من ألوان المتع يتسم بالجمال والابداع الربانى فكل ما فيها يحقق لهم النشوة والنعيم ولفظة « نعيم » فى قوله تعالى « فى جنات النعيم » تعكس عظم ما أعد للسابقين فى هذه الجنات وهو نعيم يقف الخيال حائرا فى تحديد ماهيته كما أن عبارة جنات النعيم تبين تمتع هذه الفئة بأرقى المتع والمنن المادية المصحوبة بالنشوة الوجدانية التى تغذى مشاعرهم بالرضا التام ٠

وبعد أن ذكر الله تعالى أن المقربين لهم رضوانه أى القرب من أنواره ولهم جنات نعيم بين سبحانه أن الفائزين جماعة من الأولين وقلة من الآخرين « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » وقد قال المفسرون فى تفسير الآية الكريمة أن المراد بالأولين هم الناس المتقدمين من لدن آدم الى نبينا صلى الله عليه وسلم والمراد بالآخرين هم الناس من لدن نبينا صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة وقد ذكر سبحانه الثلة ليحدد الجماعة والفئة المؤمنة من الأولين والآخرين وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت فى قوله تعالى « ثلة من الأولين وقليل من

---

(٤) قال تعالى « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » القيامة آية ٤ فالخالق العظيم بهذه الآية — والله أعلم — يبين لعباده أن رحماته الخاصة به والتى لا تتشابه مع انسان آخر سيعيدها تبارك وتعالى كما كانت وهى من أدق خصائصه وهذا أدعى والزم على عودته بتمام خصائصه الشكلية والوجدانية ٠

الآخرين » فى أمة كل نبى فى صدرها ثلة وفى آخرها قليل(٥) وبتدبير معنى الآية الشريفة نجد أن قول السيدة عائشة رضى الله عنها هو القريب من العقل الواعى والوجدان السوى فعندما يرسل الله رسولا ليهدى ويبشر وينذر تتبعه جماعة فى بداية الدعوة فتناصره حتى تستقر دعائم دعوته القائمة على التوحيد ومع مرور الزمن تهدأ الصحوة الدينية فتستيقظ فئة أخرى لاحياء الدعوة وتذكرة الناس بالحقيقة الثابتة آلا وهى وحدانية الخالق الذى بيده ملكوت كل شىء • ومن الجدير بالذكر أن ثلة الأولين فى بداية الدعوة يكون عددها أكثر من الآخرين كما تكون أشد تمسكا بالمبادىء الدينية ولذلك قال تعالى وقليل من الآخرين وعلى سبيل المثال أن السابقين فى أمة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم يختلف عددهم بتقدم الزمان فنجد الآن أن هذه الفئة الربانية قلة بالقياس لغيرها إنها القلة التى تخلص فى حياتها لتوحيد الله رب العالمين وتعلن فى كل حركة من حركاتها أن الله هو الظاهر والباطن هو الحق سبحانه وتعالى اننا نرى هذه الفئة القليلة فى كل المجالات العلمية والنظرية انهم أبرز العلماء(٦) الذين اتخذوا طريق علمهم لعبادته سبحانه وتنزيهه جل علاه فهنيئا للسابقين الذين يحبون الله جل شأنه ويسخرون كل نبضة من نبضات قلوبهم لوجهه الكريم ، إن قول الله جل علاه « وقليل من الآخرين » هو الواقع الذى نلمسه الآن فلقد أخبر العليم الخبير عباده بما سيكون فى آخر الزمان فذكر لهم أن المخلصين قلة فهل من مجادل لهذه القضية الحسية ؟

وقد انتقلت الآيات القرآنية بعد الحديث عن درجة التزام هذه الفئة الى ذكر ما أعد لها فى جنات النعيم فهم « على سرر موضونة »(٧)

---

(٥) روح المعانى : الالوسى — جـ ٢٧ ص ١٣٤ ، ١٣٥ — احياء التراث — بيروت — بتصرف .

(٦) المراد كل عالم فى مجاله .

(٧) موضونة : منسوجة بالذهب والفضة مشبكة بالدر والياقوت متقاربة — روح المعانى : الالوسى — جـ ٢٧ ص ١٣٥ — دار احياء التراث — بيروت .

أى يستمتعون بالجلوس على سرر من صنع البديع الخلاق أعدها سبحانه لهم إعدادا يليق بعظيم صنعه فهى معدة من الياقوت والدر والذهب والفضة تنبعث منها الاشعاعات التى تبهر النفوس وتسعد القلوب لروعتها وشدة جمالها هذه السرر الموضونة يتكئون عليها إتكاء العزة والكبرياء فقول الحق « متكئين عليها » ينقل كيفية جلستهم التى تناسب درجة الفوز العظيم فهم يشعرون بالمتعة والنعمة والسلطان وذلك لأن الاتكاء لا يأتى إلا لمن يملك النعيم والسلطان والثقة التامة باستمرارهما ويصاحب هذه الجلسة الكريمة جلوسهم فى ألفة وود فهم « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » إنهم يستمتعون بالجلوس على سرر متقابلين مما يضاعف من سعادتهم ونشوتهم وهم فى جلستهم العزيزة يتسامرون فى رحاب ربهم وما سمرهم الا التسبيح والحمد لجود ربهم هذا الحمد المستمر الذى ينطلق من أفواههم ليفوح عطره فى أرجاء المكان فيفيض الله عليهم بأنواره وفى هذا التجلى الربانى يشعر السابقون بالسعادة المشتركة التى تجمع بين أرقى المتع الروحية وبين أبدع المتع المادية . ومن الجدير بالذكر أن السابقين اجتمعوا فى دنياهم على الحب الالهى وذابوا فى حلاوته وشاهدوا أنواره هذا الحب الذى ربط بينهم فى الدنيا يعيده ربهم بينهم فيجلسون متقابلين يرى كل منهم فى وجه الآخر إشراقات ربه النورانية ويجنون ثماره اليانعة .

وانتقلت الآيات الشريفة الى مشهد آخر يصور النعيم المادى للسابقين فبينما هم يجلسون على السرر الموضونة يتكئون عليها متقابلين « يطوف عليهم ولدان مخلدون » وقد نقلت لفظة يطوف هيئة الجلسة التى يجلسها هؤلاء فهم يجلسون فى شكل دائرى وجوههم متقابلة يشع من بين ملامحها الرضا والسرور وهم على هذه الهيئة يطوف عليهم بصفة استمرارية ولدان يتسمون بالجمال الذى يبهر العين ويسعد الوجدان ويشرح الصدور وهؤلاء الولدان هم أولاد أهل الدنيا الذين لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها أو هم

أولاد الكفار يسخرهم الله لخدمة أهل الجنة من السابقين[٨] .

ولفظة « مخلدون » وصف يدل على ما للولدان من جمال دائم ونضارة متجددة وحيوية مستمرة مع تنوع زينتهم ورقى مظهرهم وما هذه الصفات الابداعية إلا لشيوع البهجة والسرور فى نفوس هذه الفئة المقربة كما أنها ترمى الى اتمام مظاهر النعيم والترف لهم فالنعمة تتم باحتفال الخدم والولدان بالانسان[٩] وقد علمنا ربنا فى حياتنا الدنيا هذا المنهج التكريمى حيث تختلف سبل احتفالنا بالضيف القادم حسب كرامته ومنزلته فعندما يأتى ضيف عزيز لدينا نعد له مكان الضيافة إعدادا عظيما ونرتدى أجمل ما لدينا ونحشد له من يقــوم بخدمته وهم فى أبدع صورهم من ناحية الشكل والهيئة والصوت هذا واقعنا الدنيوى الذى علمه لنا العليم الخبير فما درجة احتفاله سبحانه وتعالى بضيوفه من السابقين ؟ انه الاحتفال الدائم الذى يليق بمالك الملك والملكوت الذى له مقاليد كل شىء بسر « كن » .

إن الولدان الذين أعدهم الخالق العظيم للاحتفال بضيوفه فى دار الخلد والبقاء يطوفون على المقربين « بأكواب وأباريق وكأس من معين »[١٠] وذلك ليقضى السابقون حاجاتهم من الشراب الطهور والشراب من الأمور اليسيرة لحاجة الانسان إذ يتناولها بنفسه بلا عناء إلا أن الله كريم جواد يكرم عباده كرما عظيما يليق بدرجة جوده تبارك وتعالى فاذا كان عظيم جوده فى الشراب فكيف يكون فى الطعام واللباس والمســكن ؟

---

(٨) روح المعانى : الألوسى — ج ٢٧ ص ١٣٦ — بيروت — دار احياء التراث .

(٩) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج١٧ ص ٢٠٣ — بيروت — دار احياء التراث .

(١٠) الاكواب : الآنية التى لا عرى لها ولا خراطيم .

والأباريق : جمع ابريق وهو اناء له خرطوم .

روح المعانى : الألوسى — ج ٢٧ ص ١٣٦ — بيروت — دار احياء التراث .

إن الولدان يطوفون على السابقين بالأكواب والأباريق والكئوس ويعلمون بوحى ربهم حاجة كل واحد من السابقين ورغبته فى طبيعة الشراب وقدره ووسيلته والله بعلمه الأزلى يعلم أن عباده يفضلون الخمر فذكرها لهم على أنها من أعظم المشروبات التى تقدم لهم « وكأس من معين » ولفظة معين تعطى صورة تقريبية لطبيعة خمر الجنة التى أعدها البديع الخلاق فهى خمر جارية متدفقة من عيون خاصة يراها المقربون فيسعدون لرؤيتها البديعة ومناظرها الجميلة ويستمتعون بطيب رائحتها وعذوبة أصواتها وهى تنساب من عيونها إنها الخمر التى أعدها الخالق للمقربين من رضوانه وهى بطبيعة الحال أرقى وأرفع من خمر أصحاب اليمين .

وقد بين الله لعباده من المقربين الآثار التى تترتب على خمر جنته عندما يتذوقونها فقال تعالى « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » فحينما يتناولونها لا يحدث لهم الصداع المعهود عند تناول خمر الدنيا كما لا تنقطع لذاتها عنهم[١١] وعندما نتدبر التعبير القرآنى « لا يصدعون عنها » نقف على الحقيقة التى أخبرنا بها ربنا الذى أحاط بكل شىء علما وهى أن خمر الدنيا منذ عرفها الانسان باذن ربه الى يوم القيامة لها أضرارها أوضحها ما يصيب الرأس من صداع مصحوب بدوار شديد يتضاعف شدته كلما زادت كمية الشراب وهنا يفقد الشارب معيار توازنه الادراكى والوجدانى فيخرج عن آدميته وهذا ما نراه فى واقعنا حيث نسمع عن التصدع العنيف بين أفراد أسرة الشارب بل تمزقه هو المادى والمعنوى . لقد نقلت لفظة « يصدعون » واقعية الآثار السيئة المادية والمعنوية لخمر الدنيا وهى حقيقة لا ينكرها منكر لقد خلق الله تبارك وتعالى خمر الدنيا وأخبرنا بخصائصها وخلق خمر الجنة وأعطانا أوصافها وجعل واقعية أوصاف الأولى مدركة لنا لنؤمن

---

(١١) روح المعانى : الآلوسى ج ٢٧ ص ١٣٧ — بيروت — دار احياء التراث .

بواقعية أوصاف خمر جنته وذلك لأن خالقهما واحد وقد ثبتت أوصاف الأولى فكيف لا تتحقق خصائص الثانية ؟

كما جاءت عبارة « لا ينزفون » لتعطى واقعية مؤكدة لخمر الدنيا وحقيقة لخمر الجنة التى أعدها الله للمقربين فخمر الآخرة بديعة المنظر عندما تتدفق من عيونها تسعد الشاربين بما لها من خصائص فهى تخاطبهم بالسلام والتحية والتهنئة وتبادلهم النشوة والسرور وتجدد نشاطهم وحيويتهم ونشوتهم بأمر ربها وكلما زاد شرابهم تضاعفت حيوتهم واشتدت رغبتهم فكل رشفة من الكأس لها خاصية جمالية مادية ومعنوية تختلف عن سابقتها • أما خمر الدنيا فمهما بلغت جودتها فلا يجنى شاربها إلا الهلاك • فسبحانك يا من لك التفرد فى خلق دار الفناء ودار البقاء • والى جانب ما أعد لهم من شراب وما جهز لهم من الأكواب والأباريق والكئوس ليشرب كل منهم حسب رغبته وبالوسيلة التى يفضلها أعد الله للمقربين ثمارا من الفاكهة المتنوعة الأشكال والألوان والروائح فقد قال عز من قائل « وفاكهة مما يتخيرون » وعبارة مما يتخيرون لها دلالة على أمرين :

أولهما : الحرية المطلقة التى يرزقها الله لعباده وهى منة عظيمة من الخالق لعباده الذين أورثهم جناته فأصبحت بأمره سبحانه ملكا لهم •

ثانيهما : أن الفاكهة فى جنات الله سبحانه لا تخضع لقوانين الأسباب والمسببات فهم يتخيرون منها فى أى لحظة ما يحبون فلا فاكهة فى الشتاء وأخرى فى الصيف كما يحدث فى الدنيا وإذا كان الله جل علاه قد استقدر الانسان على زراعة بعض الثمار فى غير مواسمها فما هذا الا لرحمته سبحانه التى تهدف لهداية عباده لواقعية ما يخبرهم به من غيبيات •

إن الثمار فى جنات الخالق العظيم لعجيبة الشأن فهى تبهر النفوس وتثلج الصدور واذا كان معيار المخلوقات فى الدنيا النقصان بعد

الزيادة أو التمام فان قانون الجنة لا يخضع لهذا بل يتناول المقربون ما يتخيرون من الفاكهة لتنبت الثمار الجديدة مكانها ناضجة يانعة طيبة المنظر والمطعم والرائحة ولا يرتبط نمو الثمار الجديدة بالزمن فعندما تقطف الثمرة المختارة تنبثق مكانها فى الحال الثمار المختلفة على أتم وجه فسبحان الخالق العظيم •

ومع هذه الفاكهة المتنوعة البديعة أعد الله لهم لحوم الطير الشهية فقال تعالى « ولحم طير مما يشتهون » وجملة يشتهون تعكس للاحساس صورتين الصورة الأولى الجمال الشكلى الذى تتمتع به الطيور وهو جمال يبث فى نفس الرائى الرغبة الملحة لتذوقه والصورة الثانية تحليق هذه الطيور بأشكالها الابداعية فوق المقربين لترحب بهم بأطيب الكلمات وتبين لهم أنها مسخرة لهم من قبل ربهم فينظر لها المقربون نظـــرة الاعجاب الشديد فيشتهون تذوقها وجاء الفعـــل المضارع (يشتهون) ناقلا للانفعال العاطفى الذى يحدث للمقربين وطبيعة شعورهم عند رؤية الطيور والموقف الذى يعقب الانفعال فمجرد رغبتهم فى تذوق هذه الطيور البديعة يجدونها أمامهم فى الحال وقد أعدت الاعداد الذى يرغبون فى تذوقه وهذا يضفى عليهم الســـعادة والسرور والشعور بالكبرياء والعزة وخاصة عندما يدركون ســـعادة الطيور بهم وهم يأكلونها •

ويدل الفعل المضارع على دوام هذه الحالة العجيبة بين المقربين وبين طيور الجنة الشهية فى هيئتها ومطعمها • وقد تقدم الشراب والفاكهة على الطعام ليكشف أبعاد ترفهم وتمتعهم بكل الوسائل التى تبهج النفوس فاذا كان تمتعهم بالأمور الكمالية بهذا التكريم فكيف بحال ما هو أهم لقد أعد الله تعالى للمقربين من الذخائر والكنوز العظيمة ما يتفق وعظمة المعد وجوده فما أعظم الجزاء الذى أعده الله للمقربين الذين ذابوا فى أنواره وجعلوا دنياهم قائمة على توحيده سبحانه •

ويضاف إلى المتع السابقة المعدة للمقربين تمتعهم بحور العين « وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » فقد كون الله حور العين تكوينا

بديعا للمقربين من عباده وجهزهم التجهيز الذى يليق بهديته تعالى لهم فحور العين تتسم بالجمال الروحى والشكلى الذى يتجدد مع كل نظرة ينظرها إليهن المقربون « وحور عين »(١٣) تدل على ما لهن من جمال وإبداع يدهش المقربين فيتحيرون فى الوقوف على سبب روعة ما لهن من الجمال ولذلك سماهم ربهم حور عين فحور تعود على النســاء الجميلات الفاتنات اللاتى أعدهن الله ولفظة عين تعود على الرؤية البصرية الخاصة بالمقربين أى إنهن يحيرن عيون الرائى فى تحديد موطن الجمال .

وذكر أن « حور العين » كناية عن النساء اللاتى تتميز عيونهن بشدة البياض وشدة سواد المقلة ولكن هذا الارتباط والتخصيص يحدد موطن الجمال فيجعله مقصورا على موطن واحد وهو العين ويلغى التجاوب النفسى والاعجاب والرضا المتبادل بين الحور وبين المقربين ولذلك فعبارة حور العين تعنى تمتع نساء الجنة بالذروة الابداعية المحيرة التى تحير عين الرائى . ونحن فى دنيانا نرى المرأة الجميلة فلا نستطيع تحديد موطن جمالها ولا نقصر هذا الجمال على روعة

---

(١٢) قال النبى صلى الله عليه وسلم « خلق الله الحور العين من الزعفران وقال خالد بن الوليد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ان الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنطلق فى يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لاخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة . ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : خلق الله الحور العين من أصابع رجليها الى ركبتها من الزعفران ومن ركبتها الى ثديها من المسك الأذفر ومن ثديها الى عنقها من العنبر الأشهب ومن عنقها الى رأسها من الكافور الأبيض عليها ســبعون الف حلة مثل شقائق النعمان اذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا واذا أدبرت يرى كبدها من دقة ثيابها وجلدها فى رأسها سبعون الف ذؤابة من المسك الأذفر لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهى تنادى هذا ثواب الأولياء « جزاء بما كانوا يعملون » والله أعلم .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢٠٦ — بيروت — دار احياء التراث .

عيونها بل نتحير فيها ككل : هيئتها — لون بشرتها — زينتها — صوتها — جاذبية روحها — نضارتها ... الخ .

وقد ذكر أن الولدان المخلدون يطوفون بالأكواب والأباريق وكئوس الخمر ولحم الطير وحور العين وذلك لمضاعفة التكريم ومن الجدير بالذكر أن حور العين بعضهن قاصرات فى الخيام وبعضهن غير قاصرات . ولا يقتصر التمتع بهذه النعمة على المقربين من الرجال فالله جل علاه لا يفرق بين عباده فى حسن الجزاء فالمؤمنات السابقات فى الدنيا هن من المقربين — باذن الله — يوم القيامة ولهن المتع التى تضاهى متع الرجال وقد قيل أن المؤمنات السابقات فى الدنيا هن حور العين القاصرات على أزواجهن فى جنة الله وهى منزلة رفيعة للنساء المؤمنات . وجاء الاسم فى بداية الحديث عن المقربين بقول الحق (السابقون السابقون) بالتذكير وذلك للتعميم ولتبعة النساء للرجال بالفطرة وقد يسأل سائل ان تمتع الرجال بحور العين من الامور البديهية فكيف تتمتع بهن النساء المؤمنات السابقات ؟ إن المتعة فى الآخرة تختلف اختلافا جذريا عن منهج التمتع فى الدنيا فالمتعة فى الآخرة تعتمد على السمو والرقى والرفعة والله أعلم .

وقد شبه الله جل علاه النساء اللاتى يتصفن بهذا الجمال باللؤلؤ المكنون فهن جميلات تحتار العيون فى ابداعهن الدائم المستمر فالتشبيه فى قوله تعالى « كأمثال اللؤلؤ المكنون »[١٤] يدل على ثبوت ما لهن من صفات الحسن وتنوعها ويجب علينا فى هذا المقام ذكر طبيعة اللؤلؤ وكيفية تكوينه ليتيسر الربط بين حور العين وبينه .

---

(١٣) مادة / حور / لسان العرب — دار المعارف .

(١٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون : أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون تلألؤا .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٠٥ — بيروت — دار احياء التراث .



قطاع فى احدى اللآلئ الحقيقية يوضح ترسيب المادة اللؤلؤية في طبقات متتالية حول احد الطفيليات .

عرف الصيادون — باذن الله — اللآلىء البراقة وأعجبوا بها كل الاعجاب وكانوا يبحثــون عنها بين أحشاء المحارات البحــرية التى يجمعونها لاتخاذ لحمها طعاما لهم وكانت أقدم مهاد اللؤلؤ الخليج العربى وشرق إفريقيا والبحر الأحمر ثم اكتشفت بعــد ذلك مهاد أخرى فى مختلف بحار العالم وكانت للغواصين العرب مهارات خاصة فى الحصول على محارات اللؤلؤ واستخراج ما فى باطنها من اللآلىء المختلفة الأشــكال والأحجام وتنتمى معظم المحارات البحرية التى تستخرج منها اللآلىء القيمة إلى مجمــوعة الحيوانات الرخوة ويعد تكوين اللآلىء داخل أجسام الحيوانات الرخوة من الوسائل الطبيعية للدفاع عن النفس فالحيوان الرخو إذا أصيب باحدى الديدان الطفيلية تبدأ أنسجته فى إفراز المادة اللؤلؤية حول جسم هذا الطفيل وقاية لنفسها من أضراره الجسيمة ويكون افرازها فى طبقات متتالية واحدة حول الاخرى وبذلك يتم عزل هذا الطفيل عزلا تاما حيث يكون مصيره الفناء[١٥] وقد استقدر الخالق العظيم عبده الانسان على زراعة اللؤلؤ وذلك بوضع مادة غريبة داخل المحارات حيث تستعد الانسجة فى تكوين المادة اللؤلؤية الدفاعية ومن المعروف أن اللؤلؤ هو الدر الذى يستعمله الانسان فى أرقى زينته ويشــعر بالزهو والكبرياء عند امتلاكه لدرة واحدة ويمعن فى المحافظة عليها لتظل محتفظة بجمالها وروعتها فالعلاقة بين حور العين وبين اللؤلؤ المكنون اذن تبرز فيما يلى :

١ — تنوع أشكالهن البديعة المتألقة كتنوع أشكال اللؤلؤ البراق .

٢ — احتفاظهن بالنضارة والحيوية كاللؤلؤ المكنون البعيد عن التنــاول .

لقد بين تبارك وتعالى لعباده صورة جلية لحور العين حينما جعلها

---

(١٥) وبث فيها من كل دابة — د. محمد رشاد الطوبى ص ٢٧ ، ٢٨ دار المعارف — سلسلة اقرأ .

تشبه اللؤلؤ المكنون فتذكر أيها الانسان درجة نشوتك عندما تمتلك درة وتذكر أيضا درجة جمالها واعلم أن هذا الشبه لتقريب العلاقة بين الحور واللؤلؤ المكنون للفكر البشرى أما ماعند ربك فهو ما لم يخطر على قلب بشر فى الكم والكيف ولكن رحمة الله ترفق بخيال الانسان • فسبحانك ربنا لقد أخبرت عبادك بقيمة اللؤلؤ لهم وأثره على نفوسهم وهو ما يقفون عليه فى واقعهم وأخبرتهم بما أعددته للسابقين من حور تشبه هذا اللؤلؤ المكنون فقولك الحق ووعدك صدق لأنك الواحد المتفرد بالخلق فى الدارين •

وإذا تأملنا لفظة المكنون فى قوله تعالى « كأمثال اللؤلؤ المكنون » نجد أن اللفظة تعنى المحفوظ المستور(١٧) وهو ما يعطى حقيقة واقعية ندركها فبعض اللؤلؤ مشاع والبعض محفوظ كتحفة رائعة عظيمة الشأن وخص الله تعالى حور العين باللؤلؤ المكنون ليكشف لعباده درجة جمال الحور ودرجة تكريمه سبحانه لهم •

وبعد بيان هذا الجزاء الكريم كرم خالقه أفاض الله تبارك وتعالى على عباده من المقربين فقال « جزاء بما كانوا يعملون » وفى هذه الآية بين الله تعالى أن ما حصل عليه المقربون هو الجزاء الطبيعى لعملهم وفى هذا ذروة الفضل الالهى والرحمة الربانية فقد أمدهم الله بكل الوسائل الهادية فاهتدوا فزادهم هدى وضاعف لمن يشاء من إشراقاته الربانية القدسية فعبارة « يعملون » تحمل معانى التكريم والتشريف والحث على العمل ما دامت الحياة للانسان والجملة دعوة من الله للبحث والتأمل والدراسة والاخلاص بشرط أن يكون العمل لله وحده فيقترن بالنية الايمانية القائمة على التوحيد •

---

(١٦) البحار وما فيها — روبرت كاون ترجمة د. عبد الحافظ حلمى — مؤسسة سجل العرب — صفحات متفرقة — وحديث عن الشعب والطحالب والحياة فى أعماق البحار .

(١٧) مادة / كنن / لسان العرب .

ويختم الرحمن الرحيم حديثه الطيب الكريم عن السابقين بقوله « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما » وبهذه الآية الشريفة بين الله لعباده طبيعة الاصوات التى يسمعها المقربون فهى أصوات تثلج صدورهم وتنعش أحاسيسهم وقوله تعالى « سلاما سلاما » كشف عن درجة الترحيب التى تضاعف تكريمهم فى دار المقامة وبالتأمل فى العبارة « سلاما سلاما » نجد أنها مشتقة من اسم الخالق العظيم « السلام » مما يدل على أن الترحاب بهم من تمام نفحاته سبحانه واستمرار هذه النفحات العطرة على المقربين[١٨] .

---

(١٨) ذكر القرطبى : ان قوله تعالى « سلاما سلاما » يشير الى تحية الملائكة لهم أو تحية ربهم عز وجل .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — جـ ١٧ ص ٢٠٦ — بيروت — طبعة ١٩٦٦ — دار احياء التراث .

الفصل الثالث

المشاهد التصويرية

لأصحاب اليمين

المشاهد التصويرية لأصحاب اليمين :

انتقلت المشاهد التصويرية بعد وصف ما أعد للمقربين الى وصف مشاهد أخرى أعدت لفئة أصحاب اليمين فبدأت الآيات المباركة بتعظيم أصحاب اليمين فقال تعالى ذكره :

« وأصحَابُ اليمِينِ ما أصحابُ اليَمِينِ » .

وحرف « الواو » يشير إلى معنى التعظيم أى ما أعظم قدرهم أما حرف الميم « ما » بما فيه من ارتفاع صوتى يؤكد ما تضمنه حرف الواو من تعظيم القدر وطيب الجزاء وجزيل العطاء والخيرات وأول عطاء لهذه الفئة أشرق ببركة العاطى سبحانه وتعالى قوله جل علاه :

« فى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » .

فأصحاب اليمين يتمتعون بأشجار عظيمة الخلقة عجيبة الشأن تنبت فيها الثمار المتنوعة الأشكال والألوان تتسم بالطعم والرائحة الطيبة يتناول ثمارها أصحاب اليمين بيسر فهى مسخرة لهم تسخيرا يسعد نفوسهم فلا شوك فيها ولا فضـــلات كثمار الدنيا ويتضاعف تكريمهم حينما تقطف الثمرة فتثمر مكانها ثمارا أخرى تنفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر[٢] وتتدلى أغصان هذه الأشجار وتنثنى من عظم ما تحمل من ثمار تسحر الألباب وبالتأمل الخيالى الذى وهبه الله لعباده نتصور هذه الأشجار وهى تحتضن

---

(١) السدر : شجر النبق المخضود الذى خضد اى قطع شوكه وقيل مخضود مثنى الأغصان كنى به عن كثير الحمل .

روح المعانى : الألوسى ج ٢٧ ص ١٣٩ ، ١٤٠ — بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٠ .

أرض الجنة وكأنها خميلة بديعة الشكل فتصور أيها الانسان الأعداد التى لا نهاية لها من السدر المخضود وكأن كل شجرة تمثل بستانا لا يحيط به التصور البشرى وقد ذكر المفسرون أن السدر المخضود شجر النبق والواقع أن الله تعالى وحده أعلم بنوعية الثمار ولكنه جل علاه أعطانا القدرة على تخيل الثمار وكيفيتها بقدر طاقتنا البشرية التى خلقها لنا .

ومع السدر المخضود أى الثمار المعدة المجهزة للأكل مباشرة أعد الله تبارك وتعالى لأصحاب اليمين الطلح المنضود[٣] فقال تعالى ذكره :

« وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ » .

ويقال انه يشبه شجر الموز يتسم بتكوين شكلى يختلف اختلافا جوهريا عن السدر المخضـود فكل نوع يمثل أشـكالا من البساتين والخمائل وسواء كان الطلح المنضود يعنى شجر الموز أو أى ثمار أخرى المهم أن الله يخبر هذه الفئة من أهل اليمين أنه سبحانه أعد لهم خيرات مختلفة لا تخطر على بالهم .

وإلى جانب السدر المخضود والطلح المنضـود جهز الله تعالى ذكره لهذه الفئة « الظل الممدود »[٤] فقال سبحانه :

---

(٣) طلح منضود : نضد حمله من اسفله الى اعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز وقيل ليس بالموز ولكنه شجر ظله بارد رطب .
روح المعانى : الالوسى ج ٢٧ ص ١٤٠ — بيروت — دار احياء التراث .

(٤) الظل الممدود : اى الدائم الذى لا يزول ولا تنسخه الشمس والجنة كلها ظل لا شمس معه وقد يراد بالظل الممدود ظل العرش .
وقد قيل ان الظل الممدود شجرة غرسها الله بيده المباركة ونفخ فيها من روحه ما فى الجنة نهر الا وهو يخرج من اصل تلك الشجرة .
الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٠٩ — بيروت .
، التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٦٤ — الطبعة الاولى .
، روح المعانى : الالوسى ج ٢٧ ص ١٤٠ — بيروت — دار احياء التراث .

« وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ » .

وهى شجرة فريدة عجيبة الخلقة وقد ذكر رسولنا الصادق الامين المبلغ عن رب العزة أن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مئة عام لا يقطعها وذلك الظل الممدود وهذه الشجرة العظيمة عظم مبدعها تظل أهل اليمين يخرجون اليها فيجلسون تحتها يتحـدثون ويتسامرون ويتذكرون دنياهم الفانيـة ويتعجبون من أمرها وأمرهم فيها كيف شغلتهم برهة ويعلنون أن أعظم ما كان فيها ذكر ربهم وإخلاص النية له فى كل عمل لا إله الا هو فى الأولى والآخرة . ان أصحاب اليمين يتمتعون بهذا الظل فتحفهم رحمة ربهم التى تثلج صدورهم ويتجولون تحت ظلها فينطلق لسانهم بالحمد والثناء بما يليق بجلال ربهم . ان الظل الممدود خلقه الله لعباده من أصحاب اليمين فى الجنة وهو ليس كظل الاشجار أو الثمار التى نحتاج اليه فى الدنيا لحمايتنا من حرارة الشمس ولكن هذا الظل الممدود هو درجة من درجات الرحمات الربانية القدسية فكما أن للمقربين رضوانا وقربا من أنوار ربهم الحنان المنان فكذلك أصحاب اليمين ولكن درجته بالنسبة لهم أقل من السابقين . وربما كان الظل الممدود هو أول ما يتمتع به المقربون بصورة أعظم من أصحاب اليمين وهذا الظل الربانى هو الذى ينشره الرحمـن على الموحدين من عباده يوم القيامة لوقايتهم من الفزع فقد ذكر فى الحديث النبوى « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »[٥] .

والله أعلم بأسرار طيب كلماته .

والى جانب النعم السابقة يرزق الله عباده أصحاب اليمين الماء المسكوب فقال تعالى وقوله الحق :

---

(٥) الحديث الشريف ذكر فى تحفة العروس — محمود مهدى — الطبعة الخامسة .

، مختار الأحاديث النبوية — السيد احمد الهاشـمى — المكتبة التجارية ص ٨٤ .

« وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ » .

والماء المسكوب هو الذى ينســاب حيث يشاء أصحاب اليمين يشربون منه فيطهر نفوسهم وأبدانهم ويجدد نضارتهم وحيويتهم ولفظة مسكوب لها دلالتها المادية على دوام هذا الماء وغزارته وتدفقه بوحى من ربه والماء من النعم العظيمة فى دنيانا ونحن جميعا نقف على المشاكل التى تترتب على قلته أو انقطاعه من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فالماء فى كل زمان ومكان هو أساس الحياة وقلبها النابض وقد جاءت النعم باسم المفعول « مخضود ، منضود ، مسكوب » ليذكر الخالق عباده بأنه سيأمر هذه المخلوقات بالاستمرار على صفاتها لتكريمهم فتسعد بما يصدر لها من أوامر خالقها فتنفذ مستبشرة مسرورة .

ويستمر العطاء الربانى لأصحاب اليمين فيقول تبارك وتعالى :

« وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ » .

وفى هذا دلالة على اختلاف قانون الدنيا وقانون الآخرة فقانون الدنيا يخضع للزمان والمكان أى يرتبط بالأسباب والمسببات أما دار البقاء فلها تكوينها الخاص فلا انقطاع لأى نعمة من النعم التى أعدها الله لعباده ولفظة كثيرة تدلنا على تعدد ألوان الفاكهة واختلاف طعمها ورائحتها كما أن اللفظة تشير الى تضاعف عدد الثمار بصفة استمرارية فهى كثيرة ومستمرة ومتزايدة لاتســاع ملك المالك الذى لا يحده حــدود .

وعبارة « لا مقطوعة ولا ممنوعة » تعطى الحقائق الآتية :

١ ـ وحدانية الخالق العظيم المتفرد بشئون خلقه الذى خلق الدنيا بقوانينها وخلق الآخرة بأسرارها العظيمة ونحن ندرك إدراك اليقين انقطاع الفاكهة فى بعض المواسم مما يدل على وحدانية القائل المهيمن على دنياه وآخرته .

٢ — مخاطبة الخالق لعباده بما هداهم له فى دنياهم مما يدل على فيض رحمته وعلمه سبحانه بنفسية عباده ودرجة تقبلهم لواقعية الحقــائق •

٣ — امتناع بعض الفواكه عن بعض الناس لفقر أو لمرض وهذه حقيقة واقعية نلمسها فى واقعنا الدنيوى أما فى الآخرة فلا امتناع لانقضاء أسباب الدنيا •

٤ — إن عبارة « لا مقطوعة ولا ممنوعة » تبين اليسر والسهولة فأصحاب اليمين يحصلون على الفاكهة وفق رغبتهم بمجرد أن يخطر ببالهم ويثمر مكان الثمرة التى أكلت ثمارا جديدة وقد تقدم قوله تعالى « لا مقطوعة » على قوله تعالى « ولا ممنوعة » لأن القطع يعنى عدم الوجود للمذكور أما المنع فيدل على الوجود مع امتناع الحصول عليها[٦] وفى الجنة وجود مستمر ومتضاعف ويسر فى تحصيل المرغوب •

وتأتى بعد النعم السابقة المنة الأخيرة لأصحاب اليمين وهى التى تشير الى النساء ويتجلى ذلك فى قوله تعالى :

« وفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » .

والفرش كناية عن النساء أما قوله تعالى « مرفوعة » فهو وصف لهن يدل على سمات الرفعة والشرف والسمو وهذه السمات الجليلة تعود على النســاء الصالحات اللاتى عبدن الواحد الأحد فى الدنيا فكرمهن الخالق وأعاد خلقهن فطهرهن من شوائب الدنيا وجعلهن متعة

---

(٦) التفسير الكبير — الرازى ج ٢٩ ص ١٦٤ — الطبعة الاولى — بتصرف .

طيبة مرضية لأصحاب اليمين وبالتأمل فى قوله تعالى « إنا أنشأناهن إنشاء » نقف على نسبة الانشاء والخلق للخالق العظيم المتفرد بالأمر فكما تفرد سبحانه فى خلق عباده فى الاولى فهو سبحانه المتصرف فى كيفية النشأة الجديدة البديعة وقد أدركنا جميعا تفرده جل علاه فى خلق النشأة الاولى مما يهدى الى واقعية النشأة الآخرة وتفرده بها وقد سألت أم سلمة رضى الله تعالى عنها نبينا الأمين صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى :

« إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً » .

فقال : يا أم سلمة هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا جعلنهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء[7] .

وقد ربط القائل جل علاه بينه وبين الانشاء بالضمير « إنا » وفى هذا أعظم التكريم لأصحاب اليمين إذ يعلن الخالق لعباده أنه سيعيد النساء الصالحات فى درجة إبداعية تليق بقدرته وتناسب عظيم صنعه وفى هذه الاعادة ما يحقق لأصحاب اليمين السعادة والرضا التام وقد جاء المفعول المطلق « إنشاء » لتأكيد النشأة الابداعية الجديدة وذلك فى التكوين الشكلى والوجدانى . لأن النشأة الاولى نشأة الدنيا أما نشأة الآخرة فهى النشأة الراقية الباقية التى جعلها الله ذخرا لعباده أصحاب اليمين وقد هدانا الله لخصائص النشأة الجديدة حين قال تعالى :

« فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ »[8].

---

(٧) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢١٠ — دار احياء التراث — بيروت ١٩٦٦ م .

(٨) عربا : أى متحببات الى ازواجهن واترابا مستويات فى السن فلا تفضل احداهن على الأخرى بصغر ولا كبر كلهن خلق فى زمان واحد .

روح المعانى — الألوسى ج ٢٧ ص ١٤٢ — بيروت — دار احياء التراث العربى .

، التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٦٦ — الطبعة الاولى .

أى أن النشأة الجديدة البديعة تشمل العناصر الآتية :

١ — استمرار البكورة .

٢ — دوام الود والألفة بينهما .

٣ — تألق الشباب واستمرار حيويته ونضارته .

وهى عناصر تفقدها النساء فى الدنيا ولا يستطيع أحد انكارها أو تغيير تلك الحقائق كما أن ثبوت هذه الحقائق وواقعيتها تدل على واقعية النشأة الجديدة فالذى خلق النشأة الأولى وأخبر بتبدلها هو الذى أخبر بالنشأة الثانية ودوامها وإذا كان الله تعالى استقدر بعض عباده الأطباء على إجراء عمليات التجميل التى تعيد مظهر الشباب فما ذلك إلا تذكرة من الله لعبده الانسان ليتذكر ما لربه من قدرة « بسر كن » كما أنها دعوة منه جل علاه لهداية عبده الى أبواب رحمته وجنته . وتذكر أيها الانسان أن ما استقدرك ربك عليه من عمليات تعيد الشباب لا يكتب لها الدوام بل باستمرار ما يسمى « شد الجلد » يفقد قدرته بشهادة الاطباء .. وما ذلك الا عبرة وليتذكر أولوا الالباب قول الله تبارك وتعالى :

« إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ » .

فالنشأة تنسب لقدرته المطلقة أما عملك أيها الانســـان وكل ما استقدرك عليه ربك ما هو الا نفحة من نفحاته جل علاه لتهتدى واعلم أن ما استقدرك عليه الخالق العظيم يناسب حدودك واستعدادك البشرى الذى هو ملك لربك وفى قبضته جل علاه .

وإذا تدبرنا قول الله سبحانه « فجعلناهن أبكارا » ندرك أن الفعل « جعل » يخبر بثبوت الصفة وتحققها وقد ذكر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة اذا جامعوا نساءهم عدن أبكارا »[٩]

---

(٩) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢١١ — بيروت .

وهذه الصفة نعمة عظيمة فيها يكرم الله النساء تكريما فقد رفع قدرهن ومنزلتهن فالمرأة فى هذا الشأن التكوينى الجديد تشعر بما لها من كبرياء فهى مرغوبة دائما لتجدد حيويتها ونضارتها مع تمتعها بحياء الأنوثة المرغوب فيه كما أن هذه الصفة متعة لأصحاب اليمين حيث تثير فيهم شعور النشوة والرضا فالرجل منهم كلما نظر إلى زوجته رأى فيها رؤية جديدة تختلف عن نظرته السابقة وكأنه يراها لأول مرة • وقد تكون هذه الزوجة زوجة الرجل فى الدنيا أعدها الله لزوجها اعدادا جديدا يروقه • سبحانك ربنا أنت الكريم الجواد فى الدنيا والآخرة والعليم بنفسية عبادك وما يجلب لهم السعادة وكيف لا وأنت أقرب اليهم من حبل الوريد وبنظرة فى واقعنا الدنيوى نجد أن الرجل حين يرى عروس أحلامه لأول مرة يتمنى أن تتسم بأرق السمات النفسية الرفيعة والشكلية البديعة وقد يتحقق له هذا فى الأيام الأولى من الزواج ولكن سرعان ما تتغير بفعل ظروف الحياة الدنيوية ولذلك وعد الحق عباده أصحاب اليمين بتحقق رغبتهم واستمرارها فلهم النساء الصالحات الأبكار الأطهار اللاتى يتسمن بكل الصفات الوجدانية والشكلية الدائمة على الجمال والنضارة والألفة •

ويجب فى هذا المجال الاشارة الى أن قوله تعالى :

« فَجَعَلْنَاهُنَّ » يرتبط بالأوصاف جميعها « أَبْكَاراً ، عُرُباً ، أَتْرَاباً »[10].

والمراد أن الله تعالى يكرم أصحاب اليمين بما يحبون ويرغبون

---

(١٠) العروب : التى تتسم بالحياء مع التودد لزوجها .

، اتراب : اى مستويات فى السن ، متماثلات فى الأخلاق فلا تباغض بينهن ولا تحاسد .

روح المعانى : الالوسى ج ٢٧ ص ١٤٣ — بيروت — احياء التراث .

، الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢١١ — بيروت — دار احياء التراث .

فيجعل زوجاتهم فى بكورة مستمرة مع جعلهن يتسمن بالحياء الذى يضاعف من جمالهن ومع الحياء المرغوب تعشق الزوجة زوجها وتتودد له وتحبه لجلب السعادة لنفسه كما وعد الله ووعده الحق بجعل النساء مستويات السن فهن فى الثلاثين من عمرهن والمراد اكتمال النضج والحيوية وفى لفظة « أتراب » تكريم للنساء عامة فلا فضل لواحدة على الأخرى ٠

كما أن لفظة « أتراب » تنطبق على الرجال من أصحاب اليمين فسوف يدخلون الجنة وهم فى أتم الشباب والحيوية وحسن الهيئة[١١] ٠

وقد أكد القرآن الكريم أن النعم السابقة جميعها خالصة لأصحاب اليمين فى قوله جلّ علاه :

« لأَصْحَابِ اليَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ » .

وهم الذين آمنوا بالله الواحد القهار من عهد آدم عليه السلام الى قيام الساعة فقول الحق ثلة من الاولين تعنى الجماعات التى آمنت بوحدانية الخالق من عهد آدم الى عهد سيدنا عيسى عليه السلام ايمانا يقينا بالله وحده ٠ والمراد بالثلة من الآخرين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنها الامة التى تؤمن بما جاء من قبل الله جل علاه ولا تفرق[١٢] بين الرسل فنحن نؤمن ايمانا يقينا بوحدانية المرسل الذى أرسل موسى وعيسى وسيد الخلق « محمد » صلى الله عليه وسلم

---

(١١) ذكر أن أهل الجنة سيدخلونها جردا مردا مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين ٠

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢١١ — دار احياء التراث — بيروت — بتصرف ٠

(١٢) بسم الله الرحمن الرحيم « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » صدق الله العظيم (من آية ٢٨٥)

بمنهج تقوم دعائمه على شعار الوحدانية وهو « أنه لا اله الا الله وحده لا شريك له » فقد :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ والملائِكَةُ وأُولُوا العِلمِ قائِماً بالقِسطِ لا إله إلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »(١٣).

صدق الله العظيم

وأصحاب اليمين تشمل الرجال والنساء .

وفى نهاية المطاف لاصحاب اليمين يجب أن نشير الى النعم التى أعدها الله جل علاه للسابقين والنعم التى أعدها سبحانه لأصحاب اليمين فى عرض موجز :

السابقون	أصحاب اليمين
١ — هم المقربون من رضوان الله	١ — لهم السدر المخضود
٢ — لهم جنات النعيم	٢ — الطلح المنضود
٣ — يتكئون على السرر المنسوجة من الذهب والياقوت والفضة	٣ — الظل الممدود
٤ — يطوف عليهم ولدان مخلدون بالأكواب والأباريق والكئوس	٤ — الماء المسكوب
٥ — لهم ما يتخيرون من الفاكهة	٥ — الفاكهة الكثيرة
٦ — لهم ما يشتهون من لحم الطيور	٦ — النساء الصالحات العرب الاتراب البكور

(١٣) آل عمران (آية ١٨) .
اولوا العلم : تشير لكل عالم فى مجاله .

السابقون	أصحاب اليمين
٧ — يتمتعون بحور العين المقاصرات وغير القاصرات	———
٨ — يلقى عليهم ربهم السلام والملائكة الكرام	———

والحصر السابق ينطق بما للسابقين من كرامات ورفعة منزلة وشرف المكانة وكفاهم رفعة أن يمن عليهم ربهم فى طلعة يومهم بأنواره القدسية وبركاته الرحمانية ويختم لهم يومهم بسلامه جل شأنه عليهم فهنيئا للسابقين الذين اتخذوا دنياهم وسيلة لغاية كبرى هى رضوان ربهم فجزاهم ربهم بفيض رحمته ورزقهم من أنواره ما يقر نفوسهم ويثلج صدورهم • فهنيئا للسابقين •

ويجب أن نذكر فى هذا المجال ما قاله الله عن السابقين وهو « ثلة من الاولين وقليل من الآخرين » كما نذكر ما قاله تعالى عن جماعة أصحاب اليمين « ثلة من الاولين وثلة من الآخرين » وفى القولين يخبر العليم الخبير عباده عن درجة موقفهم الايمانى القائم على التوحيد فذكر تعالى لفظة « قليل » عندما تحدث جل شأنه عن الآخرين من السابقين فى نهاية الزمان وقد دلت اللفظة على أن السابقين يقل عددهم بتقدم الزمان وتنصرف الكثرة إلى الماديات الدنيوية وهذا ما نراه رؤية اليقين فى واقعنا فلقد أصبح السابقون قلة وهذا ما جاء به النبى الأمى المبلغ عن رب العزة العليم بشئون عباده كما أن إخباره تعالى عن أصحاب اليمين « ثلة من الآخرين » تشير إلى حقيقة واقعية وهى قلة عدد من يدين بالاسلام بالنسبة لغيرهم من أبناء الكرة الأرضية ويجب الاشارة إلى أن السابقين درجات وكذلك أصحاب اليمين •

الفصل الرابع

المشاهد التصويرية

لأصحاب الشمال

المشـــاهد التصـــويرية

لأصـــحاب الشـــمال

تنتقل المشاهد التى صورت فيض رحمة الله سبحانه على المقربين وأصحاب اليمين الى تصوير مشاهد العدل الالهى المتمثلة فى أصحاب الشـــمال :

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » .

صدق الله العظيم

بعد أن بين الله تعالى ما أعده للسابقين وأصحاب اليمين من فيض رحماته بين جزاء الفئة الجاحدة التى هداها جل شأنه فاستحبت العمى والضلالة وكفرت بأنعمه وأنكرت وحدانيته سبحانه رغم وقوفها على دلائل عظمته فى ذاتها وفى الكون من حولها لقد استكبرت هذه الفئة استكبارا يشوبه الضلال ونظرت إلى الدنيا المخلوقة مثلها نظره الغاية فجعلتها مزرعتها وحصادها ولذلك أعد الله لهذه النفس ما يناسبها ومعيار هذا الجزاء عدله سبحانه وتعالى وقد صدق فى قوله :

فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون »[١] .

وقد بدأت الآيات التى تصور أصحاب الشمال بقول الله تعالى :

وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال »

وقد بين حرف ما شدة العذاب الذى أعد لهؤلاء الكفرة الفجرة أما تكرار لفظة الشمال أكد طبيعـة مسلكهم واستكبارهم على منهج الحق منهج الله الواحد الأحد وقد سماهم ربهم أصحاب الشـمال لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم[٢] هـؤلاء الكفرة أعد لهم الحق تعالى ذكره ما ينـاسـب كفرهم وقد تم هـذا وثبت فى علمه الأزلى وأول ما ينتظرهم الريح الحارة التى تدخل فى مسام البدن والحميم الذى يعنى الماء الساخن الذى يسقط عليهم ويحيط بهم ليشـمل أبدانهم قال تعالى فى ذلك :

« فى سموم وحميم » .

وتنقل الآية الشريفة مشهدا حيا سيحدث لهذه الفئة منذ اللحظة الأولى للجزاء فهى تواجه برياح تلفح وجوهها وأجسادها وهذه الرياح ليست كرياح الدنيا بل رياح محملة بسهام فتاكة مدمرة تخترق أبدانهم فتحدث فيها آثارا بالغة الضرر فى الخـلايا والأعصاب إلى جانب ما ينتاب هذه الفئة من تدهور نفسى شديد وقد أطلق الله على الرياح التى تقابلهم لحظة الجزاء بالسموم لأنها عندما تخترق الجسد تسرى فيه كسم الحية والعقـرب[٣] وأعطانا الله سـبحانه ما يهدينا إلى

---

(١) يس آية ٥٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢١٣ — بيروت — احياء التراث .

(٣) السموم : الريح الحارة الشديدة التى تهب فتمرض أو تقتل غالبا وقد يقال ان هذه السموم هواء متعفن يتحرك من جانب الى جانب

واقعية هذه الرياح الساخنة ففى دنيانا تهب الرياح الساخنة المحملة بالرمال فماذا يحدث لنا عندما تواجهنا بغتة ؟ نشعر بالضيق النفسى الشديد ولا نتمكن من التنفس بسهولة ونحاول فى معاناة شديدة تجنب ما تحمله هذه الرياح وتقذف به فى وجوهنا وفى هذه اللحظات نتمكن من الهروب والرجوع إلى منازلنا لأننا أصحاب الخيار ولكن فى الآخرة لا يستطيع أصحاب الشمال الفرار فقد سلبهم ربهم قدرة الاختيار وحرية الحركة .

وقد أعطى حرف الجر (فى ســموم) شــمول هذه السموم لأجسادهم فهى تعلق بهم وتنفذ الى داخلهم وتستمر فى آثارها الفتاكة لهم بأمر من ربها والى جانب هذا العناء العظيم الذى يحدث نتيجة لرياح السموم نجد أن الله ذكر معها « الحميم » فقال جل شأنه : « فى سموم وحميم »[٤] . وحرف الواو يقتضى المغايرة مما يدل على أن الحميم وسيلة تعذيبية جديدة مغايرة تماما فى تكوينها وآثارها لرياح السموم والمراد أن أصحاب الشمال يعانون من شدة لفح رياح السموم التى تلفح أجسادهم وتسرى فى خلاياهم فتدمرها من شدة حرها فيهرعون إلى الماء الذى خلقه الله لهم يلتمسون فيه التخفيف إلا أنه يضاعف من آلامهم فيقطع أجسادهم ويمزقها تمزيقا .

فاذا استنشق الانسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتل الانسان وأصله من السم كسم الحية والعقرب لأن هذا السم ينفذ الى المسام فيفسدها .

التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩ — الطبعة الاولى .

(٤) الحميم : الماء الحار اذا احرقت النار اكبادهم واجسادهم فزعوا الى الحميم كالذى يفزع من النار الى الماء ليطفىء به الحر فيجده حارا فى نهاية الحرارة والغليان .

الجامع لأحــكام القرآن : القرطبى ج ١٧ ص ٢١٣ — بيروت — احياء التراث — طبعة ١٩٦٦ م .

وتنتقل المشاهد الى تصوير مشهد جديد لهذه الفئة فيقول الله تبارك وتعالى :

« وظل من يحموم »(٥) .

فهم يتحركون فى تخبط تحت ظلال من النيران المتأججة التى تمد ألسنتها لتلتقطهم فيتقلبون فى وسط جحيمها يعلوهم الدخان الأسود المتكاثف وقد وصف الحق جل شأنه هذا الظل بقوله تعالى « لا بارد ولا كريم » والمراد أن هذا الظل يضاعف من آلامهم ولتأكيد صفته المظلمة وكثافة دخانه المنتشرة التى تعلوهم لتكون سماء بيئتهم .

إن ما يحل بهؤلاء من ألوان العذاب النفسى والجسدى هو الجزاء العادل ولذلك بين الله تبارك وتعالى الأسباب التى جعلتهم يتجرعون هذا العذاب وذكر الله تعالى لهذه الأسباب رحمة منه تعالى بعباده فهى الحجة الواقعية عليهم والتى بها يتيقنون عدالة الجزاء فقال الحق تعالى ذكره :

« إنهم كانوا قبل ذلك مترفين »(٦) .

فبين الله لعباده جميعا سبب ما سيقع بأصحاب الشمال بلفظة (مترفين) وهو بيان لحالهم فى الدنيا فقد كانوا فى لعب ولهو وغرور واستغراق فى الشهوات الدنيوية الشيطانية وليس المقصود بلفظة (مترفين) الترف المادى فحسب بل المراد أيضا ذكر ترفهم الفكرى والنفسى تجاه وحدانية ربهم الواحد الأحد فقد أهملوا تلك الحقيقة الجلية وأنكروها وظنوا أن وجودهم فى الدنيا هو الغاية

---

(٥) اليحموم : اسم من اسماء جهنم وقيل انه الدخان أو الظلمة واصله من الحمم وهو الفحم الاسود .

التفسير الكبير : الفخر الرازى ج ٢٩ ص ١٦٨ — الطبعة الأولى .

(٦) ومترفين : أى مشركين .

فتكالبوا عليها وأمعنوا فى تحصيل متعها الفانية الواهية مع أنهم اذا تدبروا قليلا لاستجابت فطرتهم لنداء التوحيد الذى يعلن نفسه فى أنفسهم وفى الكون من حولهم فاقد ظلموا أنفسهم ظلما عظيما حين أشركوا بالله الواحد الأحد المتفرد بأمور الدنيا والآخرة .

فالسبب الأول لما حل بهم هو شركهم بالله جل شأنه ذكر الله بعده السبب الثانى فقال تعالى ذكره :

« وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ » .

والحنث يعنى الشرك أيضا بخالق الكون وقد بين الله فى هذا السبب شدة اصرارهم على الشرك والاستمرار على عقيدتهم الفاسدة ولذلك جاء الفعل المضارع « يصرون » لتأكيد الاستمرار على ظلمهم لأنفسهم واهدارهم لكرامتهم وعبارة يصرون تدل دلالة قاطعة على جلاء الحق لهم واستكبارهم عليه رغم وقوفهم على الحقائق التى تعلن عن خالقها الواحد الأحد .

وقد جمع التعبير القرآنى الشريف بين :

« مُتْرَفِين والْحِنْثِ » .

وهما يدلان على معنى الشرك كما يدلان على مراحل كفـــرهم واستكبارهم .

فقد كانوا فى طفـــولة تفكيرهم يشركون بالله الواحد القهـــار ويجافون فطرتهم التى تعلن حقيقة التوحيد وهذا ما يدل عليه قول الله تعالى « مترفين » أى ينكرون ويبتعدون عن الفطرية السوية . أما لفظة « الحنث » فتدل على علمهم علم اليقين بوحدانية الخالق ووقوفهم على الحقائق والأدلة التى تعلن « أنه لا إله الا الله » فهم يدركون بوعى هذه الحقيقة ولكنهم يستكبرون ويعاندون ويصرون على شركهم فكلما أقبل تفكيرهم وفطرتهم على التجاوب مع الحقيقة

تراجعوا واستحبوا العمى استجابة منهم لوسوسة نفوسهم الخبيثة وهذا التراجع المبنى على الاستكبار والمعاندة يذكرنا بموقف الوليد بن المغيرة الذى قال عنه رب العزة فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ »[٧] .

صدق الله العظيم

والحانث[٨] أشد من المترف لأن الحانث أدرك إدراك اليقين وحدانية الله مع ترديد فطرته لشعار الوحدانية أما المترف فهو مشرك بالتبعية لقومه أو مجتمعه مع إخماده لنداء فطرته وقد ذكر الله المترفين الذين أشركوا به واستحبوا العمى بالتبعية فقال تعالى ذكره :

« وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ

---

(٧) سورة المدثر الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ تدبر الوليد فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم وفكر فى القرآن الكريم ثم قال : والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه ليعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر .

الجامع لأحكام القرآن : القرطبى جـ ١٩ ص ٧٤ — دار احياء التراث — بيروت .

(٨) مادة / حنث / لسان العرب .

مُترَفُوهَا إنّا وجَدنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وإنّا عَلَى آثَارِهِم مُقتَدُونَ »[٩] .

صدق الله العظيم

وقوله تعالى جل شأنه :

« وإذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ قالُوا بل نَتبِّعُ ما وَجَدنَا عَلَيهِ آباءنا »[١٠] .

صدق الله العظيم

فالمترف مشرك بالتبعية والحانث مشرك ينكر الحقيقة التى يعلمها ويحاول التراجع عن تصديقها • ولذلك وصف الله هذا النوع من الشرك بقوله تبارك وتعالى « الحنث العظيم » • فجعله عظيما مهولا •

ولقد بدأ الله تعالى فى عرض الأسباب الجوهرية التى ستجعلهم بتجرعون السموم والحميم وظل اليحموم وكان أولها وثانيها الشرك مما يدل على أن أساس العقيدة التوحيد وبه نؤمن بوحدانية المرسل فننظر للمنهج الربانى كوحدة متكاملة يجب الايمان بكل لبناته ولذلك عندما أنكر أصحاب الشمال وحدانية الخالق الذى أوجدهم من عدم أنكروا لبنات المنهج ومنها إنكار قضية البعث :

« وكانُوا يَقُولُونَ أإذا مِتنَا وكُنا تُرابًا وعظامًا أإنّا لمبعُوثُونَ أو آباؤنا الأوّلُونَ » .

وبين الله جدلهم العقيم فى قضية البعث والنشور التى رفضوها رفضا وذلك لشدة رغبتهم الملحة فى الحياة الدنيا التى تمثل الثمرة

(٩) الزخرف : ٢٣ .

(١٠) لقمــان من آية ٢١ .

المرجوة لهم فهم يرغبون فى الانغماس الدنيوى وفعل الشهوات ولهذه الرغبة رفضوا الاعادة لرفضهم الجزاء العادل وبنوا جدلهم على ما يرضى هواهم فقالوا : كيف يمكن إعادتنا واعادة الآباء والأجداد بعد التحلل الى ذرات واختلاط عناصر البشر بعضها ببعض وقد جاء الفعل (يقولون) مضارعا ليبين استمرار فساد تفكيرهم ورفضهم فى كل زمان ومكان مع أن أصحاب الشمال لو تدبروا لتيقنوا ما يلى :

١ — ان الذى خلقهم من عدم لقادر على اعادتهم .

٢ — ان البعث يمثل قضية العدل الالهى المطلق .

ومع جحودهم وجهلهم رد ربهم الواحد الأحد عليهم ردا لطيفا رحيما فى سورة مريم فقال جل علاه : « ويقول الانسان أ إذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » .

صدق الله العظيم

لقد رفض أصحاب الشمال البعث وهذا ليس عجيبا على من أنكر وحدانية خالقه بل استطاع شيطانهم السيطرة على نفوسهم الخبيثة فتوهموا سلامة موقفهم وقالوا إذا كان بعثنا نحن فى حكم المستحيل فكيف بحال من سبقنا من الآباء والأجداد إنه أبعد وأعظم احالة وهذه المقولة التى صدرت من أصحاب الشمال فى العهود الأولى لكل دعوة توحيد نسمعها الآن من المشركين فهم يعتقدون أن الموت نهاية المطاف مع أنه بداية الصحوة وقد تقـدم ذكر التراب على العظام فى قوله عز وجل :

« أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ »[11] .

لأن البعث من التراب فى نظرهم أبعد إحالة فتقدم ذكره لبيان منهج تفكيرهم والله بهذا لا يضع تفكير وأقوال أصحاب الشمال أمام

---

(١١) مريم ٦٦ ، ٦٧ .

المؤمنين بل أمام أصحاب الشمال أنفسهم وهو اخبار لهم بما يقولون وسيقولونه الى يوم القيامة انه اخبار من ربهم الذى يعلم خواطر نفوسهم ولو تدبروا قليلا لعلموا انهم يقولون ما أخبرهم به خالقهم فهل يهتدون ؟ ! هل يهتدون أن خالقهم هو الله الواحد الأحد • فلو كان مع الله إله آخر لاختلفت أقوالهم ولكن أقوالهم واحدة كما أخبر خالقهم فى كل زمان ومكان فسبحانك رب كل شىء عما يشركون إن العليم الخبير الذى خلق عباده وعلم سرهم وجهرهم علم عباده من السابقين وأصحاب اليمين كيف يردون على أصحاب الشمال حين ينكرون بعثهم وبعث أجدادهم فقال عز من قائل :

« قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » .

وقد بدأت الآية الكريمة بالفعل « قل » الذى يعلم به الخالق عباده كيفية الاجابة والفعل لا يأمر به سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فحسب كما ذكر فى بعض كتب التفسير بل هو توجيه عام لكل مؤمن يتعرض لموقف انكار البعث من أصحاب الشمال وقد جاء حرف ان (قل إن •••) لتأكيد حدوث البعث وذكر الله عقب ذلك كلمة « الاولين » قبل الآخرين للدلالة على ما يلى :

١ — إن أصحاب الشمال أنكروا بعثهم وعدوا بعث أجدادهم أعظم إحالة فرد عليهم الحق بكلمة « الأولين » لتأكيد شمول البعث لعباده جميعا فقد أحصاهم وعدهم عدا • وعقب بعد الاولين بلفظة و « الآخرين » ليبين سبحانه وجوب الجزاء لكل نفس • وحرف الواو « الأولين والآخرين » بين به الخـالق العظيم أن البعث كتب عليهم وعلى أجدادهم فى لحظة واحدة بسر قدرته تعالى الكامنة فى « كن » فالبعث يشمل الأولين والآخرين معا فى نفس الوقت الزمنى •

وقد رحم الله تفكير عباده فشبه لهم قضية بعثهم بخروج الثمار

المختلفة الأشكال والألوان من الأرض الميتة فقال تعالى ذكره :

« وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[١٢].

صدق الله العظيم

فالانسان يرى ببصره الأرض الجرداء ويبذر فيها بنفسه البذور التى تحمل صفات لنباتات مختلفة ثم يسقيها بماء واحد حتى تشاء إرادة الله نمو هذه البذور الجافة فتخرج الثمار المختلفة الأشكال والألوان من الأرض الجرداء الميتة مع احتفاظ كل ثمرة بصفاتها وعليك أيها الانسان أن تسأل نفسك من جعل البذرة الجافة تحتفظ بكل خصائصها ولن تجد إلا اجابة واحدة وهى أنه الله خالق كل شىء وواضع منهج الحياة ثم الموت ثم الحياة لعباده جميعا من الانس والجن والحيوان والنبات والجماد وما لا نعم من المخلوقات .

إن الرحمن الرحيم جل علاه رحم عبده الانسان الذى فضله على كثير من مخلوقاته فجعل له فى واقعه ما يقرب قضايا الغيب لذهنه فقد علمه نوعية وخاصية ما يبذر فى الأرض ليهتدى إلى أن الذى علمه يعلم خصائص كل عبد من عباده دفن فى الأرض فاذا شاء أمر الأرض باخراجهم جميعا كما أمر الأرض باخراج الثمار المختلفة الأشكال والألوان فالبذور الجافة المختلفة تشبه الأجساد الميتة بما لها من خصائص ذاتية . فالذى علم عبده قطرة من بحار علمه يحيط بكل شىء علما .

إن انكار أصحاب الشمال لواقعية البعث هو انكار لواقعية مظاهر

(١٢) الأعراف آية ٥٧ .

الكون من حولهم ودلالة على تفضيلهم العمى على الهدى فهم لا يبصرون حتى يأتى اليوم الموعود الذى يقفون فيه أمام الواحد القهار ولذلك قال جل علاه :

« لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .

فقد اقترنت لفظة « مجموعون » بحرف اللام لتأكيد حدوث البعث والنشـــور للأولين والآخرين أعطى معنى الجمع الدلالة على طبيعة البعث التى ستشبه الدعوة العامة التى يدعوها الديان لعباده فاذا هم قيام ينظرون وهى دعوة تشمل السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال كما بينت العبارة « إلى ميقات يوم معلوم » أن ميعاد هذا اليوم حدده الله ووقع فى علمه الأزلى .

وبعد أن ذكرت الآيات الشريفة أسباب الجزاء الذى سيقع على أصحاب الشمال وأكدت أنهم « لمجموعون » انتقلت المشاهد الى تصوير الأحداث التالية فقال عز من قائل :

« ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون » .

صدق الله العظيم

وبدأت الآيات الشريفة بحرف « ثم » الذى يفيد التراخى ويشير الى الفترة الزمنية الواقعة بين دعوة الحق للقيام من الارض وبين الحساب ليعقبه استقرارهم فى نار جهنم وبئس القرار فمن رحمة الله بعباده أصحاب الشمال اخبارهم بســبب ما يحل بهم من العذاب واشهادهم على أنفسهم حتى لا يشعرون بالظلم وكيف يظلمون وقد كتب ربنا على نفسه الرحمة وحرم على ذاته العليا الظلم ولذلك ذكرهم الله تعالى ذكره بموقفهم من دعوة الحق فى الدنيا بالوصفين :

« أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ »[١٣] .

ولضلالهم وتكذيبهم سيكون مصيرهم العذاب الأليم • وقد جاء الوصف بالضلال بصيغة اسم الفاعل (أيها الضالون) ليكشف حقيقة هؤلاء فقد زرعوا فى أنفسهم ثمار الحيرة والقلق والشك مع وضوح الحقيقة أمامهم أما وصفهم بالمكذبين فى قوله تعالى :

« أيها الضالون المكذبون » •

فبين أنهم صدقوا أوهامهم وظنونهم فكذبوا الحقائق الجلية •

ولذلك كان عقابهم الاكل بأنفسهم من شجر الزقوم فقد ورد طبيعة طعامهم بصيغة الفاعل (آكلون) أى أنهم يتناولون من شجر الزقوم بأيديهم ولا يملكون القدرة على الامتناع فقد سلب منهم الاختيار وتبدلت نعمته بقهرهم على تنفيذ الأمر فهم يدركون الآثار الضارة لشجر الزقوم ومع ذلك يلتهمون هذا الطعام المعد لهم وهذا قمة اذلالهم واهانتهم • والواقع أن الله منح عباده جميعا الحرية المطلقة فى اختيار المنهج الايمانى فمنهم من أهتدى ومنهم من ضل الى أن يأتى يوم القيامة ويختلف المنهج فتظل الحرية المطلقة آية من آيات التكريم للسابقين وأصحاب اليمين وتسلب من أصحاب الشمال لتكون العلامة المميزة لمهانة حياتهم • ان شجر الزقوم الذى يتناوله أصحاب الشمال ذكره الحق تعالى ذكره فى سورة الصافات فقال :
« إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين »[١٤]

صدق الله العظيم

والوصف يعد غيبا بالنسبة لواقعنا الدنيوى ولكن القرآن الكريم المنزل من قبل الله استطاع بقدرته البلاغية التنفير من الشجرة فقد

---

(١٣) قيل الخطاب موجه الى اهل مكة •
التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٧٤ — الطبعة الاولى •
(١٤) الصافات ٦٤ ، ٦٥ •

ربط الله بينها وبين لفظة الزقوم التى يدل تركيبها على القبح والكراهة[١٥] مما يعطى الدلالة على بشاعة المنظر وخبث الرائحة وحرارة الطعم وشدة حرارته مما يسبب صعوبة الابتلاع التى تصيبهم بالغصة المستمرة ومع ذلك لا يملكون التراجع عن أكل ثماره ولذلك قال الله تعالى « فمالئون منها البطون » فهم آكلون بأنفسهم الى درجـــة الامتلاء الذى يصيبهم بالاختناق فيحاولون تخفيف ماهم فيه من عناء بالماء الذى يرونه وهم يظنون فيه الدواء إلا أنهم يصابون بآلام أعظم تقطع الأحشاء من أول رشفة لها الا أنهم ينهالون عليها عبا • يقول الله فى ذلك : « فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب البهيم » •

فالماء الذى يشربونه بأيديهم هـــو نيران سائلة تكوى أكبادهم وعبارة فشاربون تشير الى درجة قهرهم وإذلالهم وتكرارها يدل على تدرج العناء الذى يقدمونه لانفسهم القبيحة فقد أهدروا كرامتهم فى الدنيا بالشرك ويوم القيـــامة يجنون ثمرة ما قدموه فهم فى الدنيا والآخرة السبب لما نزل بهم من العذاب المهين أما قوله تعالى : « شرب الهيم »[١٦] فقد عكس شدة الاقبال على السائل المائى النيرانى الذى يظنون فيه سبيلا للتخفيف ولكن هيهات ان عذابهم يتصاعد حتى يصل ذروته لقد أعد الله جل شأنه لأصحاب الشمال هذا الاستقبال القائم على ميزان العدل فى دار الحـــق ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

« هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » .

---

(١٥) التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٧٤ — الطبعة الاولى .

(١٦) الهيم : وهى الجمال التى أصابها العطش فتشرب ولا تروى والهيم الرمال التى لا ترتوى .

روح المعـــانى — الألوسى ج ٢٧ ص ١٤٦ — بيروت — احيـــاء التراث ، التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٧٤ ، ١٧٥ — الطبعة الأولى .

فاذا كان بداية استقبالهم بهذا العذاب التصاعدى فكيف يكون الحال عند استقرارهم .

وبعد فان نزل أصحاب الشمال ومنهج استقبالهم ليس غريبا عن عالمنا الدنيوى فالمجرم فى نظر القانون يستقبل بالتأنيب والتقريع حتى يتدرج العقاب إلى ما يستحقه من جراء ذنبه ومما يجب الاشارة اليه أن الله تعالى ذكره لم يذكر مع أصحاب الشمال لفظة (ثلة) أى جماعة وهى التى ذكرت مع السابقين وأصحاب اليمين مما يدل على كثرة أصحاب الشمال وهذا إخبار غيبى من الله جل علاه بالمنهج الذى سينتهجه الكثير من عباده .

ان الله تبارك وتعالى فتح لعباده جميعا أبواب رحمته وجعل مفتاحها فى توحيده جل علاه فما شعار « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا الايمان التام بوحدانية الخالق وبالمنهج الذى بعث به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وليتذكر الانسان أن كل رسول جاء بشعار التوحيد لرب العالمين كما يتذكر أن ارتباط اسم الله تبارك وتعالى باسم المصطفى الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يرجع الى أنه المتمم لانوار الرسل السابقة فبشرى لمن آمن بوحدانية الله ووحدانية منهجه . لقد شملت رحمة الله عباده جميعا حتى الجاحد لنعمه وهل أدل على ذلك من دعوته لعباده أصحاب الشمال وخطابه جل علاه لهم بلطف قال تعالى ذكره :

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ » .

وهذا الخطاب يشيع بأنواره رحمة الله ويحمل الدلائل الهادية فالرحمن الرحيم لا يرضى لعباده الكفر بل يرضى لهم التمتع بنعيم جناته ولذلك بين لعباده أصحاب الشمال الدلائل المادية التى تنير نفوسهم لحقيقة المنهج الالهى فالضمير فى بداية الآيات « نحن

خلقناكم ...... » قصر الله به الخلق على ذاته العليا أما الفعل خلقناكم الذى ورد فى الزمن الماضى فيدل على وقوع خلقهم فى علمه الأزلى ليخـــرج كل منهم بعد ذلك من عالم الغيب المعلوم لله وحده الى حيز الوجود البشرى عند مشيئة الله تعالى بالميلاد الدنيوى .

أما الحرف فلولا :

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » .

فقد دل على توبيخهم والتسفيه بعقيدتهم الفاسدة والمراد لما لا تصدقون الواقع المادى الذى ترونه رؤية بصرية ولما استمراركم الفاسد على انكار وحدانية ربكم الذى له وحده خلقكم ولما تنكرون البعث والحياة الثانية فى دار الحق ؟ فما انكاركم الا لوجـــود هذه الحقيقة الكامنة فى فطرتكم ومحاولة نفوسكم الأمارة بالسوء تكذيبها . وتستمر دعوة الرحمن الرحيم لعباده أصحاب الشمال للنجاة من النار وحتى لا يكون لهم حجة يوم البعث يقـــول تعالى شأنه « أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » والآية تعطى الدليل المادى على وحدانية الله الذى خلقهم من عدم فقد ورد الاستفهام للتقـــرير فالعبارة « أفرأيتم » تقرير من الخالق لاصحاب الشمال الذين لا يجدون اجابة الا « بنعم » نرى المنى ونعلم أننا نخلق منه وقد ذكر الحق عبارة « ما تمنون » ولم يذكر سبحانه البويضة الانثوية لأن « المنى » يحمل عنصرى الذكورة والأنوثة وهذه الحقيقـــة لم يعلمها الانسان الا فى العصر الحديث[١٧] وقد أخبر بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى المبلغ عن ربه المحيط بكل شىء علما .

---

(١٧) خلق الانسان من علق — د. رشاد الطوبى — دار المعارف ص ٤٨ .

، القرآن والاعجاز فى خلق الانسان ، د. طاهر توفيق ص ٣٨ .

، تأملات علمية تنطق بقدرة الله ، د. عز الدين فراج ، دار الفكر ص ٨ ، ٩ .

وقد وردت العبارة (تمنون) بالمضارع لبيان استمرار منهج الخلق من نطفة المنى وما ثبات المنهج واستمراره الا دلالة على وحدانية الخالق المهيمن على ناموس مخلوقاته .

وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذكره بعد تقرير عباده أصحاب الشمال واجابتهم (بنعم نرى المنى) .

« أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » .

والعبارة تقهر أصحاب الشمال على الاجابة التى تكون حجة عليهم فهم يجيبون فى كل زمان ومكان لا لم نخلق المنى إذا فمن يخلقه ؟

وهذا الاعتراف الضمنى سيعرض عليهم يوم البعث بأصواتهم . إن أصحاب الشـــمال لو تدبروا لتيقنوا وحدانية ربهم فما وحدانية منهج خلقهم الا دلالة جلية على وحدانية الله فى الكون فلم يخلق البشر فى حقبة من نطفة المنى وفى حقبة أخرى من مادة مغايرة ومن الامور العجيبة التى تدل على خبث نفوسهم أنهم يجيبون دائما أن الله هو الذى خلقهم ومع ذلك يصرون على شركهم فيظلمون أنفسهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون »[١٨] .

لقد من الله تعالى ذكره على عباده أصحاب الشمال بكل سبل الرشاد ليهتدوا الى أنواره تعالى فالدليل الواقعى الذى ذكره جل علاه لهم وهو خلقهم من ماء مهين لم يذكره سبحانه عبثا بل ليذكرهم أن

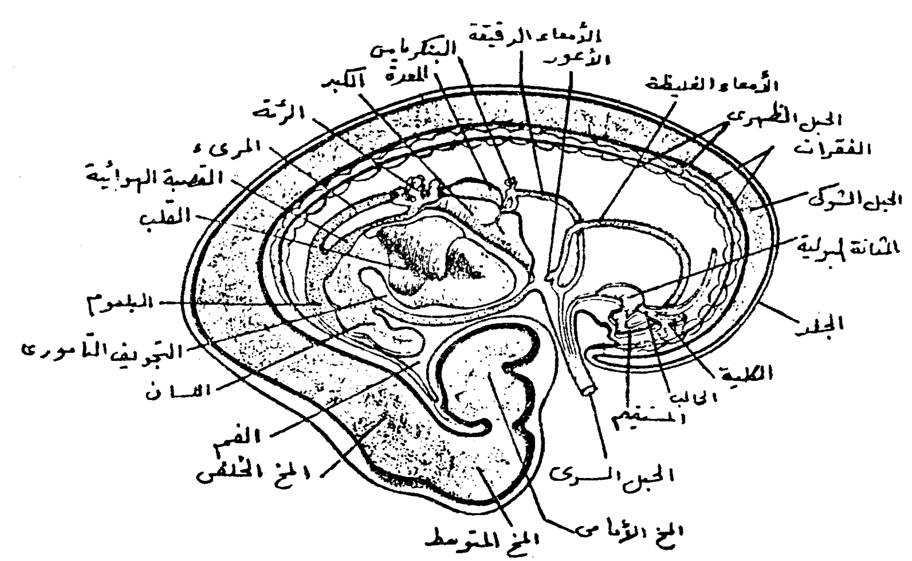
---

(١٨) الزخرف : آية ٨٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

"أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون "

الواقعة ٥٨ ، ٥٩ صدق الله العظيم



جنين إنسان عمره حوالى خمسة أسابيع وهو ما يمكن اعتباره «مضغة مخلقة»
(كتلة من الخلايا البروتوبلازمية بدأت تنتظم فى مجموعات محددة لتكوين «بداءات» الأعضاء فى الجسم)

وقال تعالي

بسم الله الرحمن الرحيم

"وضرب لنا مثلاً ونَسِىَ خَلْقَهُ قال من يُحىِ العِظامَ وهى رميمٌ قل يحييها الذى أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلقٍ عليم "

يس ٧٨ ، ٧٩ صدق الله العظيم

الذى خلقهم من عدم فى أحسن تقويم لقادر على إعادتهم ثانيا من أجزاء معلومة عنده تبارك وتعالى[١٩] .

ويأتى بعد الدليل السابق (وهو خلقه تعالى للنطفة) الدليل الثانى الذى يعلن تفرد الخالق فى أمر الموت والحياة فيقــول عز من قــائل :

« نَحنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ ومَا نحنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أنْ نُبدِلَ أمثَالَكُمْ » .

فبعد أن ذكر تبارك وتعالى قضية خلقه لنطفة المنى ذكر سبحانه قضية واقعية يراها أصحاب الشمال ويدركون حقيقتها إدراك اليقين ألا وهى خلقه للموت والحياة فالضمير (نحن) فى بداية الآية قصر به الخالق هيمنته على أمره ولم يجعل لاحد عباده تدخل فيه فسبحانه له التفرد المطلق فى الايجاد والعدم والمقدر للموت والحياة وهذا واقع لا ينكره جاحد كفور ولا يستطيع واحد منهم أن يخالف هذه الحقيقة فيدعى أنه يقدر على بث الحياة فى النطفة التى تعد فى حكم الشىء الميت بعد انفصالها عن الجسد الحى والخالق وحده هو الذى يقدر حكمه فى هذه النطفة ولذلك فان قوله تعالى « نحن قدرنا بينكم الموت » يشــير — والله أعلم بأسرار كلماته المباركة — إلى أمر الموت من زاويتين :

أولهما : أن الله تعالى وضع منهجا قدر فيه موت الحيوان المنوى الذى يخترق البويضة أو حكم سبحانه على البويضة بعدم التجاوب مع الحيوان المنوى وفى الحالتين موت .

وقد يقدر الله تعالى للنطفة أن تمر بمراحل النمو الطبيعية الى أن

---

(١٩) التفسير الكبير : الرازى جـ ٢٩ ص ١٧٥ وما بعدها بتصرف .

تكتمل أجهزة الجنين ويحين ميلاده وهنا يصدر الأمر الالهى بموته فى بطن أمه قبل خروجه للدنيا فقول الحق من هذه الزاوية حكمه بالموت على النطف البشرية فى مراحل مختلفة فقد أصدر حكمه على النطفة أو العلقة أو المضغة أو الجنين .

ثانيهما : أن يكون دلالة الآية الشريفة « نحن قدرنا بينكم الموت » يعنى أن الله جل علاه يأمر النطفة بالنمو فى مراحلها الطبيعية لتخرج طفلا مقدرا له الحياة ثم الموت ويكون تقدير الحق للموت هنا بين الاحياء من البشر فقد حدد لكل انسان ميقاته فاذا جاء لا يملك التقدم أو التأخر لان هذا الميقات بارادة الله وحده لا دخل لمخلوق فيه ولا يملك انسان القدرة على دفعه وهذا الواقع الملموس ندركه جميعا ويعترف به أصحاب الشمال فهم يحبون الحياة حبا جما ومع ذلك يموت أمهر الاطباء عندهم بأمراض برزوا فى علاجها . وحتى الاصحاء منهم لا يملكون القدرة على استمرارية الحياة لانفسهم أو لمن يحبون فقد يموت الابن قبل أبيه والحفيد الشاب قبل جده وليس هذا عبثا بل بتقدير الله وحده ولو كان تقدير الموت فى يد الانسان لدفعه عن أحب الناس اليه وبهذا تبين الآية اشريفة « نحن قدرنا بينكم الموت » تفرده سبحانه وتعالى عن الشريك فى تقدير أعمار عباده .

وعلى سبيل المثال لا الحصر نسمع أن طائرة احترقت وخرج بعض أفرادها لم يمسسهم سوء أو أن شخصا سقط من مكان مرتفع ولم يمت ومن ناحية أخرى نسمع عن شخص مات وهو يتمتع بكامل صحته وشبابه ويرجع ذلك كله لتقدير الله وحده وحكمه بين عباده ولذلك لا يجوز لمؤمن أن يقول عمن تعرض لحادث روع وظل حيا كتبت له حياة جديدة لأن الأجل لا يخضع لقانون الأسباب والمسببات ولكن يقول قدر الله وما شاء فعل .

إن الدنيا سفينة جمالها براق يجذب العيون التى لا تبصر تحملنا جميعا على متنها وتسير بنا فى بحار الأغراء والأهواء المتلاطمة الأمواج

ولكن السابقين وأصحاب اليمين يبصرون فيها شاطىء الامان فتتعلق قلوبهم به ألا وهو توحيدهم لله رب العـــالمين حتى اذا جاء ميقات نزولهم من على ظهرها استقبلهم شاطىء الأمان بالبشرى والتهنئة . فلقد تيقنوا أن الموت الواقع المقدر فنظروا للدنيا على أنها سفينة عبور لا سفينة خلود ومتعة ومع أن الموت حكم الله وحده على عباده جميعا فانه تعالى ذكر به أصحاب الشمال خاصة فى الآية الشريفة :

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ)

ليحذرهم من غفلتهم وما ذلك الا لفيض رحمته تعالى .

إن الموت والحياة يخضعان لتقدير الله وحده فلماذا خص الخالق العظيم الموت بالذكر :

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ)

ذكر علماء التفسير أن سبب ذلك يرجع الى أن الموت سابق للحياة وأن الله تعالى ذكره ينبه أصحاب الشمال الى أن الذى خلقهم من عدم قادر على اعادتهم فهو تعالى ذكره خلق الضدين الموت والحياة[٢٠] وقد يرجع ذكر الله تعالى للموت فى الآية الشريفة — والله أعلم — تذكرة عباده الى واقعية الموت وحتمية لكل نفس بشرية بغتة فالانسان لا يرى واقعية بث الحياة له ولكنه يرى الموت أمامه ومع هذه الرؤية الواقعية قد تغره الدنيا ويظن أنه قادر عليها وعلى استمرار الحياة له فأراد الله التذكرة بهذه الحقيقة الواقعية المرئية لعلهم يرجعون .

أما قـــوله تعالى : « وما نحن بمسبوقين » فى الآية الشرية :

« نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » .

---

(٢٠) التفسير الكبير : الرازى ج ٢٩ ص ١٧٥ وما بعدها بتصرف الطبعة الاولى .

فيشير الى تفرده المطلق فى شأن ملكه وملكوته وهيمنته على مخلوقاته كما أن قوله تعالى (نحن بمسبوقين) يؤكد معنى (نحن قدرنا •••) والمراد أن الله هو المقدر والمتفرد والأول الذى لا سابق له سبحانه وتعالى له الأمر فى الأولى والآخرة • وعقب سبحانه وتعالى بعد الآية السابقة (نحن قدرنا ••••) بقوله تعالى :

« عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

والآية تعلن ما للخالق العظيم من سلطة مطلقة على مخلوقاته فاذا شاء سبحانه القضاء على أصحاب الشمال أصدر أمره بذلك فسبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون — وعبارة (نبدل) تبين قدرته تعالى على التغير الجذرى والمراد قدرته تعالى على ايجاد أمة جديدة تختلف عن البائدة فى جميع صفاتها الشكلية والمعنوية • أما قوله تعالى :

« وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

فيشير الى أن تدمير هذه الفئة الجاحدة فى الدنيا لن يجنبها عذاب الآخرة بل ستأتى فى نشأة[٢١] جديدة يعلمها الله وحده وهى نشأة المهابة والذلة لتبدأ بعدها مراحل العذاب التدريجية للنفس والجسد ان وجود الفئة الجاحدة للحقيقة الجلية لأعظم دليل على حرية الاختيار التى كتبها الله لعباده فسبحانه قادر على هدايتهم جميعا ولكنه تبارك وتعالى أرشدهم اليه وتركهم يختارون السبيل ، فقد خلق بعض مخلوقاته على القهر والبعض على الاختيار كالانسان الذى أمده بكل ما يهديه الى توحيده سبحانه وتعالى •

ومن الجدير بالذكر أن من يدين بالتوحيد فيؤمن ايمان اليقين

---

(٢١) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى ج ١٧ ص ٢١٧ — بيروت — بتصرف •

بأنه لا إله الا الله محمد رسول الله لا يعد من أصحاب الشمال[٢٢] • بل سيحاسبه ربه بقدر ما قدمت يداه ثم يدخل الجنة بفضل ربه تبارك وتعالى ولذلك فان أصحاب اليمين درجات وقد سماهم ربهم أصحاب اليمين للبركة التى ستحل بهم ولكرامات أنواره التى ستشملهم بفضل أنوار توحيده سبحانه وتعالى • وبعد حديث الله تعالى عن قدرته على تبديل الفئة المشركة يفيض برحمته ليهدى قلوبهم الضالة ويدعوهم الى الايمان به جل علاه فيذكرهم مرة أخرى بطبيعة تكوينهم فيقول :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ » .

بدأت الآية الشريفة بقوله تعالى « ولقد » الذى يراد به التأكيد والتحقيق القائم على اليقين أما عبارة علمتم فتشير الى معرفة الانسان بأصل نشأته باذن ربه وما تعليم الله لعبده بحقائق الوجود الا ليهتدى الى توحيد الخالق العظيم وقد حدد الله ما علمه لعبده عن حقيقة النشأة بلفظة (الأولى) وهى التى تدل على مرحلة الطينية ثم النطفة وما يتبعها من أطوار التكوين المختلفة فقول الحق تبارك وتعالى :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى » .

دعوة واقعية لا ينكرها مشرك جاحد فقد علم كل واحد منهم هذه النشأة الأولية علم اليقين ولذلك قال تعالى ذكره « فلولا تذكرون » أى كيف لا تؤمن قلوبكم وتستجيب فطرتكم وقد هداكم ربكم بكل السبل وجعل لكم فى كل شىء عظة وعبرة فلقد علمكم النشأة الأولى وهى نشأة ثابتة منذ علمكم الله إياها وثباتها ووجدانية منهجها دلالة على وحدانية الخالق إنكم ترون النطفة التى تخـرج من أصلابكم وتعتبرونها فى حكم الشىء الميت إلا أن الله يكتب لها الحياة لتكـون

---

(٢٢) ان هذا الشعار يعنى طاعة لله الواحد الاحد والايمان بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتمم للرسالات السابقة بأمر ربه .

امتدادا لكم فتذكروا عظمة ربكم الذى علمكم إن الله يكتب الحيـاة لنطفكم كما يكتب الحياة للبذور التى تبذرونها فما نطفكم إلا كالبذور فى الأرحام وما أجسادكم فى الأرض إلا بذور أيضا وهو سبحانه المتفرد فى تقدير الموت والحياة فيها .

سبحانك يا أرحم الراحمين تخاطب عبادك أصحاب الشمال خطاب الرأفة والرحمة وأنت القادر عليهم فالحمد لك كما ينبغى والثناء على ذاتك بما يليق بك .

أيها الجاحد أنظر لرحمة ربك التى تخاطبك لتنجيك من العذاب الأليم لقد قدم الله جل علاه لأصحاب الشمال الحجج الواقعية وكانت أول حجة واقعية خلقه تعالى لهم من ماء مهين وعقب الحـق تبارك وتعالى بعد ذلك ببرهان آخر يدعوهم فيه أيضا للايمان قال عز من قائل : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظللتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون » وفى هذا الدليل ذكر العلماء أن الله تعالى عندما ذكر قدرته على خلق الانسان من ماء مهين ذكر بعده خلقه تعالى لما يتصل باستمرار الحياة له ألا وهو المأكل[٢٣] يضاف الى ذلك إرادة الله فى تذكيرهم بقدرته على خلقهم من نطفة مهينة لا تملك لنفسها موتا ولا حياة وتقريب قضية البعث والنشور باحياء الموتى واخراجهم من الارض للأذهان فجعلها سبحانه تماثل قضية إحياء البذور الجافة وتقديره سبحانه للموت والحيـاة فيها فقوله تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » .

---

(٢٣) الجامع لأحكام القرآن : القرطبى ج ٧ ص ٢١٨ — دار احياء التراث — بيروت .

يقابل قوله جل شأنه :

« أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون » .

والمقابلة تبرز فيما يلى :

١ — تماثل النطفة البذرة الجافة فى أن كل منهما لا يتصف بالانتماء الى نوعه الا بعد خروجه لحيز الوجود فالنطفة لا تتصف بالانسانية الا بعد تقدير الله لها بالنمو ثم خروجها للدنيا وكذلك البذور لا تتصف بالنباتية الا بعد ظهور الورق الأخضر ، كما تمر البذور بمراحل تكوينه كتطور نمو النطفة حتى يأذن الله تعالى لها فتخرج للحياة بعد تفتق الأرض ليظهر الورق الأخضر وما ظهوره وتفتق الأرض له إلا كخروج الجنين من بطن أمه بانقباض وانبساط عضلات الرحم لدفعه •

٢ — تحمل النطفة المخصبة الخصائص الوراثية والشكلية والمعنوية وكذلك الشأن فى عالم النبات حيث تحتفظ كل بذرة بخصائص نوعها وتنتقل من جيل الى جيل بعد التلقيح وقد ذكر عن عالم الوراثة مورجان(٢٤) « أن كل خلية تناسلية فى أى كائن حى تحتوى نواتها على نصف عدد الكروموسومات وعند التلقيح والاخصاب يصبح عدد الصبغيات (الكروموسومات) فى الزيجوت الناتج من التهجين أو التلقيح مساو للعدد الثابت • والجاميطات أو الأمشاج هى الجسم الذى تعبر به الكروموسومات مع ما تحمله من عوامل وراثية مسئولة عن ظهور صفات خاصة • علما بأن كل عامل وراثى له موضع ثابت على الكروموسوم الخاص به » •

---

(٢٤) البيولوجية الانسانية . أوجين شريدر — ترجمة د. خليل الجر — سلسلة المنشورات العربية ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ •

، خلق الانسان من علق : د. رشاد الطوابى — دار المعارف ص ٤٦

وعلى سبيل المثال التوضيحي يختلف البشر فى ألوانهم وألسنتهم (٢٥) بل وفى أدق خصائصهم كبصمة البنان وبصمة الصوت وهذا واقع نراه فهناك المصرى والسودانى والهندى والصينى والانجليزى ولكل جنس منهم خصائصه (الخاصة والعامة) المستمرة على وحدة المنهج وهو الخلق من النطفة المخصبة وكذلك النباتات مختلفة الأشكال والألوان مع أنه تسقى بماء واحد (٢٦) فسبحان الواحد الأحد القائل :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (٢٧) .

صـــدق الله العظيم

٣ — يمر الانسان بمراحل الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة ثم الموت وكذلك النبات .

إن قضية خلق الله تعالى للنبات والتى ذكرها جل علاه فى قوله تعـــالى :

« أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ — » .

---

(٢٥) تأملات علمية تنطق بقدرة الله — د. عز الدين فراج — النهضة المصرية ص ٣٧ ، ٣٨ بتصرف — طبعة ١٩٨٩ .

(٢٦) خلق الانسان من علق : د. رشاد الطوابى — دار المعارف ص ٤٤ ، ٤٥ سلسلة اقرأ بتصرف .

، الوراثة الانسانية : جان روستان — ترجمة د. خليل الجر — سلسلة المنشورات العربية ص ٥ : ١٢ .

(٢٧) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

جمعت للبشر بين مشاهد الدنيا والآخرة وجعلت الأحداث الغيبية الخاصة بالبعث والنشور يراها بجلاء من يبصر بأنوار ربه فما وضع البذور الجافة فى التربة الأرضية إلا كوضع الجسد الانسانى فى تلك التربة والله وحده هو الذى يملك بث الحياة فيهما تارة أخرى وفق مشيئته تعالى .

إن الله تعالى بدأ الآية التى تعد برهانا لواقعية البعث والنشور بتقرير عباده أصحاب الشمال

(أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ أأَنتُم تزرعونهُ أمْ نحنُ الزَّارعون) .

والله أعلم باجابة عباده التى لن تخرج عن قولهم نعم نرى ما نحرثه والخالق العليم بنفسية عباده لا يريد منهم الاجابة السلبية التى تعنى الرؤية المجردة من التفكير ولكنه تعالى يدعوهم إلى وحدانيته تعالى التى تهيمن على قانون الموت والحياة لمخلوقاته جميعا . فالبشر يضعون البذور فى الأرض وينتهى دورهم الذى شرفهم ربهم بالقيام به وهم يعلمون ذلك ليأتى بعد ذلك أمر الله للأرض والبذور فيأمر سبحانه وتعالى الأرض لتمد البذور بالغذاء الذى يعمل على نموها ويأمر البذور بالاستجابة لتمر بمراحل تطورها المعهودة لجنسها وتخضع هذه المراحل لمنهج واحد ثابت لا يتغير مما يدل على وحدانية المهيمن الذى وضع لكل مخلوق قانون نموه ولذلك قال رسولنا المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فان الزارع هو الله »[٢٨] .

---

(٢٨) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ٧ ص ٢١٨ — بيروت احياء التراث — أى أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ألنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيه السنبل والحب ؟

إن تقرير الله تعالى شأنه لعباده دعوة ايجابية لعباده أصحاب الشمال ليتدبروا فى أمرين :

أولهما : من خلق البذرة ووضع فيها الخصائص التى تحفظ نوعهـــا ٠

ثانيهما : من بث الحياة فى البذرة وجعلها تمر بالمراحل المرتبة المعقدة التى يشد بعضها أزر بعض ٠

إن هذا التفكير يجعل الفطرة السوية تعلن أنه لا اله الا هو سبحانه الظاهر والباطن ٠

فقول الله جل علاه « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »(٢٩) يعطى الدلالة على الاعتراف الضمنى من أصحاب الشمال الذى سيكون حجة عليهم يوم القيامة ٠ كما أن قول الله « أأنتم تزرعونه » يبين للانسان شدة عجزه ويذكره بمكانته الحقيقية فهو لا يملك لنفسه شيئا فكيف يملك لغيره ٠

إن المملكة النباتية تضم أمما عدة لكل أمة خصائصها المستقلة المورفولوجية والتشريحية والسيتولوجية والوراثية والفســيولوجية توصل اليها — باذن الله — بعض علماء النبات مثل « إنجلر » أستاذ النبات بجامعة برلين « وبسى » أســتاذ النبات بجامعــة نبرســكا الأمريكية(٣٠) ٠ فسبحان الذى خلق هيمن وعلم ووضع فى كتــابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الحقائق التى تهدى عباده فى كل زمان ومكان ٠

---

(٢٩) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ٧ ص ٢١٨ — بيروت احياء التراث ٠

(٣٠) علم تقسيم النبات د. قاسم فؤاد السحار ص ١٧٧ : ١٨٣ الطبعة الأولى ، المملكة النباتية د. حسن العروس — دار المطبوعات الاسكندرية صفحات متفرقة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا مِن دابَّةٍ في الأرْضِ ولا طَائرٍ يَطـيرُ بجناحيهِ إلا أُممٌ أمثالُكم ما فرَّطْنا في الكتابِ منْ شيءٍ ثم إلىَ ربهمْ يُحْشَرُون »(٣١) .

صـدق الله العظيم

لقد بين الله لعباده ما يهديهم الى وحدانيته ولواقعية الحياة الثانية كما ذكرهم بحكمه إذا أراد أمرا فقال تعالى :

« لو نَشاء لجعَلنَاهُ حُطاماً فَظلْتُمْ تفكّهونَ » .

أى إذا أراد سبحانه اهلاك أمة نباتية لا يستطيع الانسان دفع ارادته تعالى وهذه تذكرة حية من الواقع البشرى فالانسان لا يملك لنفسه موتا ولا حياة فكيف يملكها لغيره إن قوله الله تعالى :

« لو نَشاء لجعَلناهُ حُطاماً »(٣٢) .

تذكرة وعبرة وموعظة للانسان بقدرة الله على مخلوقاته ونفاذ أمره فيها فالانسان يبذر البذور باذن ربه ويرعاها ولكنها لا تنمو

=

مورفولوجيا : علم التشكل وهو فرع فى علم الأحياء يبحث فى شكل الحيوانات وبنيتها أى دراسة استقصاء فى بنية الشىء وشكله .

والسيتولوجية : علم الخلايا وهو فرع من علم الأحياء يبحث فى تركيب الخلايا ووظائفها وأمراضها .

الفسيولوجية : علم وظائف الأعضاء .

ترجم المصطلحات السابقة د. وفاء حسين مدرس اللغة الانجليزية بكلية الدراسات الانسانية جامعة الأزهر .

(٣١) الأنعـــام ٣٨

(٣٢) حطاما : متكسرا والحطام الهشيم الهالك الذى لا ينتفع به فى مطعم ولا غذاء .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — جـ ١٧ ص ٢١٩ — بيروت .

تماما كالنطفة المنوية التى تخرج من الجسم الحى وتصب فى الأرحام ولكنها تفقد القدرة على النمو باذن ربها . وقد يأمر الحــق البذور بالاستجابة والنمو فتنمو حتى تصبح الأرض مخضرة يانعة ناطقة بكل مظاهر الحياة الخادعة لأصحاب الشمال الذين يظنون أنهم قادرون على منحها الحياة بصفة استمرارية إلا أن الخالق قدر لكل شىء أجلا فلو شاء أهلك هــذه البساتين الخضراء وجعلها حطاما هنا لا يملك الظالمون دفع الهلاك عنها كما لا يملكون دفع الموت عنهم ويحضرنى فى هذا المقام قول الحق تبارك وتعالى : بسم الله الرحمن الرحيم :

« . . . حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(٣٣).

صــدق الله العظيم

لقد جسدت جملة (جعلناه حطاما) هيئة الزرع وهو فى مراحل نموه حتى يصل الى ذروة ريعانه وقمة شبابه فيشع بالحيوية ويبشر بالأمل كما جسدت الجملة (جعلناه حطاما) هيئته فى مرحلة أخرى وهى مرحلة إهلاكه التى تأتى بغتة لتدمر القطاع الجمالى الحى بما فيه من ثمار يافعة ناضجة الى حطام يابسة جافة فالجملة إذن نقلت صورتين الحياة ثم الموت وهما بتقدير الله رب العالمين . لقد ضرب الله جل علاه لعباده أصحاب الشمال مثلا حيا يعظهم به فكما أهلك أمة نباتية قد يصدر أمره ليهلك أمة جاحدة وليس هذا على الله ببعيد .

وقد نقلت الآية الشريفة الحالة النفسية التى سيصبح عليها أصحاب الشمال حينما يرون الأرض الخضراء حطاما :

---

(٣٣) يونس من آية ٢٤

« لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٣٤) • إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ »(٣٥) .

وهذه الحالة الوجدانية التى تستقبل الحدث نلمس واقعيتها لدى أصحاب الشمال فهم يصـــابون بالذعر والدهشة ويستقصون الأسباب التى يظنون أنها سبب الكارثة ويتعجبون من حدوثها بغتة فيرددون كل أساليب التعجب والسخرية كيف وقع هذا ، لماذا حدث وعندما يصابون بالاخفاق فى تعليل السبب وتشتد بهم آلام الحيرة يضحكون بسخرية دامية على آمالهم التى أصبحت سرابا لقد نقلت عبارة (تفكهون) ذروة التخبط النفسى كما نقلت الجملتان (إنا لمغرمون ، نحن محرومون) درجة شعورهم بالخسارة والحرمان فقد شعروا بالخسارة الفادحة ولكنهم تنبهوا فتيقنوا وقوع الهلاك الحتمى فلا أمل فى اكتمال الزرع الذى هو عماد حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • ويختلف موقف من يؤمن بالله الواحد الأحد عن موقف أصحاب الشمال إزاء الكوارث فالمؤمن بالله يدرك تمام الادراك أن الله خالق الأسباب والمسببات وأن حرمانه يضـــاعف حسناته ويرفع شأنه عند ربه ولذلك يحمد خالقه مرددا : قدر الله وما شاء فعل •

إن تقرير الله سبحانه وتعالى لقضية الحياة ثم الموت لزرعه تعالى شكل بعض العناصر القصصية الحية كالحدث والمكان والصراع النفسى والفكرى للأشخاص بواقعية تخاطب كل زمان ومكان ومرجع ذلك وحدانية الخالق العليم الذى يعلم نفسية عباده وتفكيرهم « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٣٦) •

---

(٣٤) فظلتم تفكهون : تعجبون بذهابها وتندمون .

(٣٥) محرومون : أى حرمنا ما طلبنا من الريع .
الجامع لأحكام القرآن الكريم — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٠ — بيروت •

(٣٦) الملك : آية ١٤

لقد ذكر الله لعباده ما يدعوهم الى الهـداية الواعية المبصرة المختارة للحياة فى رحابه النورانى فذكرهم بخلقه تعالى لهم من ماء مهين كما ذكرهم بخلقه للزرع الذى يماثل تطورات حياتهم ويعتمدون عليه فى تشكيل دعائم بنيانهم ثم ذكرهم الرحمن الرحيم بخلقه سبحانه للسبيل الذى يحافظ على حياتهم وحياة زرعهم لعلهم يشكرون قال جل شأنه :

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » .

والله تعالى يذكر هذا الدليل الثالث ليذكر عباده بوحدانيته وأن الايمان بذاته القدسية هو الأمر الفطرى وفى هذا الدليل الواقعى بين الله لأصحاب الشمال عظيم رزقه ومنبع رحمته وواقعية وحدانيته فالماء أساس كل شىء حى وهم يرون الماء الذى يشربونه ولم يــدع أحد منهم أنهم خلق قطرة منه كما أنهم يدركون إدراك اليقين ضرورة الماء العذب لحرثهم فالآية دعوة الصحوة الفطرية الغريزية التى تسبح باسم ربها الأعلى .

بدأت الآيات الشريفة باستفهام تقديرى يحمل الاعتراف الضمنى الذى سيكون حجة جلية على أصحاب الشمال الذين يعلمون أنهم لم يخلقوا الماء وليس لهم شــأن فى تكوين السحب أو تصريف الرياح بواسطة حرارة الشمس . فقد سخر الله تعالى الشمس لتقوم بعملية التبخير لمياه البحار والمحيطات والأنهار لتكوين السحب ثم سخر الرياح لتوجيه السحب وفق إرادته تعالى كما خلق دورة مستمرة مسخرة بين الشمس والبحار والمحيطات والأنهار وبين سحب الغلاف الجوى من جهة أخرى وفى أثناء هذه الدورة يتخلص الماء من ملحوته(٣٧) ليعود إلى

---

(٣٧) الكون والاعجاز العلمى — د. منصور حسب النبى — دار الفكر ص ١٨٦ : ١٩٩ بتصرف ومن ص ٢٠٠ : ٢١٢ .

الأرض بأمر ربه فى عذوبة تامة تروى كل حى ، حقا استطاع الانسان اكتشاف بعض الوسائل التى تساعده على إنزال الماء من السحب ولكنه نسى أن الذى هداه هو الله كما نسى أنه لم يخلق الشمس التى تقوم بعملية التبخير والرياح التى تحرك السحب ونسى أنه لم يخلق الماء !

لقد استقدر الله عباده على إحداث المطر الصناعى فى نطاق محدود ليهتدوا الى طلاقة عظمته وشمول هيمنته وادراك ينابيع رحمته •

إن قول الله جل علاه :

(أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ —) .

قصر فيه إنزال المطر على حكمه وحكمته وهيمنته على الدورة المسخرة بين الشمس والأنهار والبحار والمحيطات والرياح بدقة استمرارية وقد بين الله لعباده أصحاب الشمال إرادته فى تحويل هذا الماء العذب الى ملح أجاج :

« لَوْ نَشاء جَعَلْناهُ أُجاجاً(١٨) فَلَوْلا تَشكُرُونَ » .

والآية تدعو الى توحيد الله سبحانه فهو الذى أنزل الماء العذب باصدار أمره لمخلوقاته التى تقوم بتجهيزه وهو وحده القادر على ابقاء صفة الملوحة فيه وهذه التذكرة دعوة للشكر القائم على التوحيد لله الذى بيده مقاليد الأمور • إن قضية خلق الله للماء العذب هى نفسها قضية خلقه للنطفة والبذرة وتقديره تعالى لتطور مراحل الخلق فى كل طور •

---

(٣٨) الأجاج كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه ويشمل الملح والمر والحار ، روح المعانى — الالوسى — ج ٢٧ ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، بيروت — دار التراث — بيروت •

، الجامع لأحكام القرآن — ج ١٧ ص ٢٢٠ — بيروت — احياء التراث •

وبعد عرض هذه القضايا (خلق النطفة والزرع والماء العذب) ذكر الله تعالى الدليل الرابع على وحدانيته وتدبيره الأمور خلقه فقال تعـالى :

« أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتـاعاً للمقوين (٣٩) * فسبح باسم ربك العظيم » .

لقد خاطب الله رب العالمين عباده أصحاب الشمال فذكرهم بقضية واقعية يعتمدون عليها فى إصـلاح معيشتهم ألا وهى النـار التى يستخدمونها فى السلم والحرب وبدأ جل علاه كلامه الشريف بالاستفهام الذى يراد به التقرير للمخاطب ليكون الاعتراف دليلا على قائله .

وجاء التعبير القرآنى الشريف :

« أفرأيتم النار التى تورون »(٤٠) .

مشيرا الى واقعية النار فى حياة أصحاب الشمال بالرؤية ويرجع ذلك الى أن النار من الأمور الحسية التى يرى الانسان أبعاد آثارها ويدرك إدراك اليقين أنها أقوى منه ولكنها مسخرة له بأمر الله سبحانه وتعالى فعندما يذكر الله عباده بها يريد — والله أعلم — سبحانه تذكرة

---

(٣٩) متاعا للمقوين : أى منفعة للمسافرين سموا بذلك لنزولهم القوى وهو القفر . والمقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين . الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ٧ ص ٢٢١ — احياء التراث — بيروت .

(٤٠) تورون : أى التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد وقد جاء فى حديث لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ان ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ... » .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ٧ ص ٢٢١ — بيروت — احياء التراث .

الانسان بفضله عليه هذا الفضل الذى يستوجب الشكر فقد جعــل خاصية النار مسخرة للانسان وجاء الفعل مضارعا « تورون » لبيان استمرار استخدامها وتنوع هذا الاستخدام مع ثبات خاصية الاحراق والواقع أن الحديث عن النار يبين للانسان العاق الفائدة الكبرى لها فهو يستغل طاقاتها فى سلمه وحربه فى كل زمان ومكان • ومن الجدير بالذكر أن مقدار نفعها وسبل استغلالها يختلف من عصر لعصر وذلك لمشيئة الله الذى يدبر الأمور لعباده فيخلق لهم القدرات الاستقبالية التى تتجاوب مع روح عصرهم فقد كانت النار منذ العهــود الاولى وسيلة لانضاج الطعام والتدفئة وهداية الضال فى الطريق كما كانت تستخدم فى مجالس القوم لبث الأمان والتخلص من الوحشة وبتقدم الزمان اختلف الاحتياج باذن الله فتم استغلال الطاقة النيرانية فى أعظم سبل التقدم فاستغلها العلماء فى دفع الصاروخ للوصول الى القمر دفعا عنيفا لاختراق مجال الجاذبية الأرضية كما تستخدم النيران فى صهر الحديد والصلب حيث تقوم أعمدة المصانع الضخمة عليها الى أخر تلك الاستخدمات المتنوعة •

فعبارة « تورون » عكست سبل استخدامها منذ خلقت الى أن يأمرها الله بزوال عملها • وليعلم أصحاب الشمال أن الله تبارك وتعالى خلق النار وجعلها مسخرة لارادة الانسان منذ خلق الكون فقد أعد سبحانه الدنيا اعدادا شاملا لكل عناصرها التى سيحتاجها الانسان ثم خلق الانسان ليكون ضيفا فى كون الله وعلى أرضه وفق مشيئته فلا يجوز للضيف أن يجحد نعم المضيف فكل النعم التى أعدها صاحب الملك تهدف إلى هداية الانسان لرب العالمين كما تهدف لاسعاده •

وبعد أن نبه الله عباده أصحاب الشمال لأهمية النيران وتنوع وظائفها قال تبارك وتعالى :

« أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ » .

والخطاب « أأنتم » تذكرة من الله سبحانه لعباده أصحاب الشمال بحقيقتهم فهم لا يملكون القدرة على خلق شيء فالضمير إذن صيحة لليقظة ووضع المعايير فى موطنها الصحيح أما عبارة « أنشأتم » فتدعو الى رد أصل النار الى من خلقها من عدم وقد يتوهم الجاحدون أنهم شكلوا النيران التى تدفع الصاروخ لتخرجه من مجال الجاذبية(٤١) فعليهم أن يتذكروا أصل وجودها هل لهم خلقها من عدم ؟ هل يرجع لهم الفضل فى أصل وجودها ؟ إن هذا المنهج الربانى الذى يخاطب به الله كل ضال عاق يعلمه الله لعباده الأبرار كى يسلكوه فى دعواهم لوحدانيته جل شأنه لأنه المنهج الواقعى المنطقى الذى يناشد العقل والوجدان وبعد خطاب الله لعباده أصحاب الشمال وتذكيره لهم بأنه الخالق للنار التى جعلها وسيلة لاتمام مصالحهم بين لهم أن وجودها فى الدنيا عبرة وعظة « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » والضمير « نحن » يعطى الدلالة على وحدانيته وتفرده فى شأن خلقه فقد خلق النار الأمرين العظة والمنفعة البشرية ولا ثالث لهما فلا يجوز أن تعبد فهى مخلوقة مثلهم حدد الله لها عملا وقدم الله جل علاه لفظة « التذكرة » لأن الآخرة هى دار الحق وهى غاية الوجود البشرى فلا تذكرة فيها فالتذكرة فى البداية والمقدمة ألا وهى الدنيا . أما قوله تعالى « متاعا للمقوين » وهى المنفعة الثانية فتشير الى أن الدنيا بكل ما فيها يجب أن تهدى الى التذكرة بدار الحق والبقاء .

إن الله قصر على ذاته خلق النار وبين الهدف من وجودها فى الدنيا ولكن ما الشجرة التى ذكرها الله فى قوله تعالى :

« أأنتم أنشأتم شجرتها » .

---

(٤١) الكون والاعجاز العلمى القرآن — د. حسب النبى — دار الفكر ص ٨٨ ، ٢٤٢ وما بعدها .
، تأملات علمية تنطق بقدرة الله . د. عز الدين فراج — دار الفكر ص ٤٣ ، ٤٤ طبعة ١٩٨٩ .

توصل بعض الدارسين فى العصر الحديث أن المـــراد بالشـــجرة هى الشمس لأن الشمس مصدر الطاقات المرئية التى نعتمد عليها فى جميع الاختراعات والتى تؤدى الى توليد النار من المصادر المختلفة التى تتفرع جميعها من شجرة الطاقة فى عالمنا وهى الشمس فالنبـــات الأخضر يختزن — باذن ربه — الطاقة النيرانية من الشمس بواسطة عملية التمثيل الضوئى والتى تؤدى بدورها الى تكون الأخشاب والفحم والبترول والغاز الطبيعى ... الخ . فتذكر أيها الانســـان أن من استطاع بقدرته جعل النار فى الورق الأخضر لقادر على ايداع النيران فى بدن الميت وفى عناصره بعد التحلل فأنت ترى الورق الأخضر ولا ترى النيران المختزنة به وكذلك ترى الميت ولا تقف على عالمه الغيبى عنك .

وتذكر أن النار التى هى أقوى منك مسخرة لك فى الدنيا أما فى الآخرة فسوف تسلط على أصحاب الشمال لتلتهب لاحراقهم واعلم أن نيران الدنيا جميعها لا تقاس بما عند ربك من نيران لاحراق أصحاب الشـــمال .

إن الله تعالى بين لأصحاب الشمال دلائل وحدانيته وتفرده بالأمر فى كل شىء واقعى ودعاهم الى رحمته وغفرانه :

١ — أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ .

٢ — أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ .

٣ — أَفَرَأَيْتُم المَاءَ الذى تَشْرَبُونَ أَأَنْتُم أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ .

٤ — أَفَرَأَيْتُم النَّارَ التى تُورُونَ أَأَنْتُم أَنْشَأْتُم شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ .

إن الاجابة الواقعية التى ستأتى على لسان كل واحد من أصحاب الشمال هى « الله الذى خلق النطفة والزرع والماء والنار » أى خلق

الكون بعناصره ولذلك عقب الخالق العظيم بعد اعترافهم الضـمنى بقوله تعالى :

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » .

والمراد أن اعترافهم بالله وحده يستوجب التسبيح وجاء الفعل « فسبح » مقترنا بالفاء التى تدل على أن الأمر بالتسبيح ترتب على اعترافهم بالواقع الفطرى عقـب كل دليل والتسـبيح يعنى التنزيه واعلان الكمال المطلق لخالق الكون — وقول الله « ... باسم ربك العظيم » يدل على ضرورة التسبيح بالوجدان والعقل واللسان فى كل لحظة من لحظات حياة الانسان وقد ذكر الله تعالى الجار والمجرور « باسم » ليلزم عبده بالتسبيح المطلق عند سماع اسم من أسماء الله تعالى ويحذره سبحانه من الشرك فيجب أن يكون التسبيح خالصا لوجهه الكريم شكلا وموضوعا ليتحقق مبدأ التوحيد وهو أسـاس العقيدة السوية .

إن الله تعالى شأنه عندما أمر بتسبيح اسمه بين لعباده أن ذكر أى صفة من صفاته(٤٣) العليا أشد مدعاة لتسبيحه تعالى القائم على التوحيـد .

---

(٤٢) ذكر ان الصفات اشرف من الاسماء وذلك لأن الاسم لا يفيد السامع الا دلالة مجملة واما الصفات فانها تعرف ماهيات الأشياء وحقائقها واحوالها ولذلك فان كل من اراد تعريف ماهية فانه لا يمكنه تعريفها الا بذكر صفاتها واحوالها وخواصها .

وهناك رأى يرى ان الاسم اشرف من الصفة لوجوه منها ان الاسم أقدم من الصفة لأن المراد من الصفاء الأسماء المشتقة ولا شك أن الاسماء الموضوعة اصل للأسمائ المشتقة كما ان الأسماء المشتقة مركبة من الأسماء والموضوعة مفردة ولا شك ان المفرد اصل المركب ولذلك فالأسماء اشرف من الصفات .

والواقع ان الصفة إذا اقترنت باسم الله فلها المنزلة العليا والمكانة الشريفة التى يدركها الانسان .

شرح أسماء الله الحسنى — الرازى — ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف — ١٩٧٦ .

أما قوله تعالى « ربك » فتدل على العلاقة القائمة بين الخالق العظيم وعباده هى علاقة الرحمة والحب • إن الله تبارك اسمه يهدى عباده ويعلمهم فى كل زمان ومكان وما هدايته وتعليمه لهم الا تربية عالية منه تعالى شأنه فهى تربية الرحمة والرأفة فقــوله جل شأنه (ربك) يصور قمة الحب الربانى من الله لعباده جميعا أما اسناد كلمة « رب » للضمير فيصور عظم تشريف الله لعبده الانسان • فالعزة والكبرياء والتكريم تتحقق للانسان بربوبية الله له •

وقد حدد الله فى الآية الكريمة صفة من صفاته يسبح بها الانسان وهى صفة العظمة :

« فَسَبِّحْ باسمِ رَبِّكَ العَظيمِ » .

فلماذا حدد الخالق هذه الصفة دون غيرها من صفاته العليا ؟ ان صفة العظمة ترتبط بكل أمر واقعى ملموس وقد ذكر الله عباده بقضايا واقعية تجلت عظمته تعالى فيها فقد خلقهم من نطفة فجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وبث فيهم المشاعر والأحاسيس والعواطف وجعل لكل بيئة شكلا مميزا يتكيف مع الظروف المناخية وخلق لهم الزرع فجعل فى بنيانه ما يخص كل أمة من صفات شكلية وخصائص اجتماعية ونفسية كما خلق لهم الماء العذب الذى ينزل بأمره من السحاب وخلق لهم النار التى تختزن فى الورق الأخضر من الشمس وكل ما سبق دلائل واقعية ندرك جميعا عظمتها ولذلك ربط الله بين ربوبيته للانسان وبين صفته العليا العظيم لأن صفة العظمة تتصل بادراك البشر لوجــوه الاعجاز السابقة •

وبعد أن أمر الحق عباده بتعظيمه قال تعالى :

« فَلا أُقسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعلَمُونَ عَظِيمٌ » .

بدأت الآية الشريفة بالنفى « فلا » والمراد اثبات الحقيقة التى سيذكرها الله وهى حقيقة جلية لا تحتاج الى قسم أو برهان ألا وهى صدق القرآن الكريم المنزل من قبل الواحد الأحد فالنفى ورد لاثبات وتعظيم ما فى القرآن الكريم من كنوز عظيمة يضمها بين طياته فيها أمور الدنيا والآخرة وقد جعل الآخرة بما فيها من غيبيات ماثلة أمام بصيرتنا فالقرآن الكريم مرآة صافية نرى فيه حقائق الدنيا والآخرة .

أما قوله تعالى (بمواقع النجوم) والذى عقب به الله بعد لفظة « القسم » فقد ذكر أن المراد بها المشارق والمغارب لما فى ذلك من دلالة واضحة على هيمنة الخالق ، وقدرته المطلقة وضبطه سبحانه لناموس الكون وقيل أن مواقع النجوم يعنى انكدارها وانتشارها وتبدل أحوالها يوم القيامة أو هى قلوب عباد الله من الملائكة والمؤمنين وما لهم من كرامة عند ربهم ومنزلة عظيمة مستمدة من أنواره الربانية فقد تفتحت قلوبهما للقرآن الكريم فأصبحت نجوما مضيئة يهتدى بها فهى فى الدنيا مصابيح منيرة لمجتمعها وهى فى الآخرة رائدة نحو الصراط المستقيم تعرف بما لها من سمات ربانية فيتجه معها كل موحد أما قلوب الملائكة فقد عمرت بأسرار القرآن الكريم الذى يلهج كل حرف فيه بوحدانية الخالق فلا يقسم الله إذن بما سبق لما لهم من منازل عنده تعالى عظيمة وثابتة[٤٣] .

وقد يكون ذكر النجوم جاء صراحة — والله أعلم — وذلك لأن

---

(٤٣) التفسير الكبير — الرازى — ج ٢٩ ص ١٨٨ الطبعة الأولى (بتصرف) .

، الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٤ — بيروت — احياء التراث .

وقد قيل فى قوله تعالى « فلا اقسم بمواقع النجوم » ان المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما انزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا الى السفرة الكاتبين فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم حسب أحداث أمته . الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٤ احياء التراث — بيروت .

الله تبارك وتعالى تحدث عن خلق الانسان من نطفة وتحدث عن قدرته المطلقة فى خلق الأمم النباتية وعن خلق الماء العذب وخلق النار وكلها دلائل واقعية نلمسها فى أنفسنا وفى الأرض التى نعيش عليها فذكر تعالى بعد هـــذه الأمور الواقعية النجـــوم ليبين سبحانه انه إله السـماوات والأرض الواحد الأحد .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٤٤) .

صـــدق الله العظيم

فكل المخلوقات التى نعلمها والتى لا نعلمها فى قبضته تعالى وعلى هذا فذكر الله للنجوم فى قوله تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » .

يبين الله به لعباده أصحاب الشمال أنه تعالى خالق ما فى الأرض وما فى السماء وذكر سبحانه النجوم والمراد — والله أعلم — السماوات وما فيها من اعجاز ينطق بدلائل عظمته جل علاه وبذلك يكون النفى فى بداية الآية الكريمة (فلا أقســم ....) يرمى الى إثبات ما لهذه النجوم من وظائف تنطق بقدرة الخالق العظيم فلا مجال للقسم بها لظهور الاعجاز فيها والاحتياج اليها فى كل زمان ومكان فقد كان الانسان يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر مثلا استعان العرب بنجم الشعرى(٤٥)

---

(٤٤) الزخرف ٨٤ ، ٨٥

(٤٥) وهو ألمع نجوم السماء بريقا ويقع فى مجموعة الكلب الأكبر قريبا من الجوزاء ويبعد عنا خمسمائة ألف مرة قدر الشمس ولهذا يظهر لنا =

فى أسفارهم الى الشام ثم هدى الله جل علاه الانسان الى طبيعة النجوم وكيفية خلقها كما هداه من قبل لكيفية خلقه وخلق النبات وتكون السحب واختزان النار فى الورقة الخضراء فقد هدى الله عباده الى أن ما يسرى عليهم وعلى المخلوقات المرئية لهم الواقعية فى بيئتهم القريبة يسرى على ملخوقاته فى السماء فالنجوم أيضا تسير فى دائرة الخلق والتطور ثم الوفاة[٤٦] كالانسان وما حوله من كائنات فمنهج الله واحد فى جميع

كنقطة مضيئة فى السماء ولكنه لو حل محل شمسنا فانه يعطينا من الضوء والحرارة قدر ما تعطيه الشمس حوالى أربعين مرة . وهذا يدل على تنظيم الخالق للعلاقة القائمة بين مخلوقاته تنظيما يعتمد على حكمته تعالى وتدبيره لأمر مخلوقاته واسس وظائفهم فقد خلق الأرض والكواكب والنجوم ووضع اسس العلاقة بينهم ليعيش الانسان فى أمن واستقرار .

الكون والاعجاز العلمى القرآن — د. منصور حسب النبى — دار الفكر ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ (بتصرف) .

(٤٦) يولد النجم عادة عندما تتراكم كميات كثيفة من الغاز والتراب الكونى البارد من الفضاء الكونى بفعل الجاذبية ويظل هذا التراكم مستمرا حسب كتلة النجم يبدأ بعدها التفاعل النووى لأن ازدياد التراكم يؤدى اولا الى تقلص النجم نتيجة ازدياد الجاذبية فترتفع درجة الحرارة والضغط فى باطن النجم وتصبح الكرة النجمية متوهجة ذاتيا لتعلن عن ميلاد نجم جديد طاقته ناشئة اساسا من انكماشه التجاذبى وبهذا يبدأ النجم مرحلة الطفولة ويتركب عادة من الايدروجين مخلوطا بكمية صغيرة من الهيليوم . وعندما يتزايد الضغط وترتفع درجة الحرارة الى ملايين الدرجات فى باطن النجم يبدأ فورا التفاعل النووى الاندماجى حيث يندمج الأيدروجين مكونا هيليوم وتنتج الطاقة التى تنطلق من المركز الى سطح النجم على هيئة اشعة جاما فيسخن السطح الى آلاف الدرجات وتنطلق منه الطاقة الضوئية المرئية وغير المرئية وتتجدد بذلك قوة إضاءة النجم ولون سطحه الذى يعتمد على مساحة سطحه ودرجة حرارته الى أن يدخل النجم بهذا فى مرحلة الشباب .

وتدور حياة النجوم الشابة بلايين السنين حتى يبلغ زاد النجم من الأيدروجين منتهاه ويتراكم رماد الهيليوم فى باطن النجم وتقف التفاعلات النووية فتتغلب قوة الجاذبية ويتقلص القلب فجأة فترتفع درجة الحرارة الى مئات الملايين ويتحول الهيليوم بتفاعل نووى جديد الى عناصر أخرى

مخلوقاته وهذا المنهج قائم على قانون الحياة ثم الموت فسبحان الذى كتب على مخلوقاته منهجا واحدا يهدى الى وحدانيته تعالى فالنجوم تسير على منهج التطور المعروف وهو الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة ثم الموت كما هدى الله تعالى عباده العلماء أن للنجوم أقدارا ودرجات متفاوتة كباقى مخلوقاته فمنها الكبير ومنها الصغير وفيها الطفل والشاب والكهل . فسبحانك كتبت على مخلوقاتك التطور والتغير وحددت لكل منهم أجله سواء أكان من مخلوقات الأرض أو السماء فتعاليت ربنا أنت فرد فى علاك متفرد فى حكمك مهيمن على مخلقاتك .

إن قسم الله بالنجوم دل على ما لهذه النجوم من شأن عظيم بأمر خالقها ولذلك قال الله لأصحاب الشمال فى سورة النازعات :

بسم الله الرحمن الرحيم

(أأنتُمْ أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسوَّاهَا وأغْطَشَ لَيْلَهَا وأخْرَجَ ضُحَاهَا)(٤٧) .

صدق الله العظيم

وفى سورة غافر قال تعالى شأنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(٤٨) .

صدق الله العظيم

=

كالكربون والأكسجين ليصبح النجم عملاقا أحمر يبتلع كواكبه القريبة وتستمر مرحلة الشيخوخة التى يقضيها النجم الأحمر الى أن يموت .

الكون والاعجاز العلمى للقرآن . د. منصور حسب النبى — دار الفكر ص ٢٦٧ : ٣٠٥ .

(٤٧) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٨) غافر : آية ٥٧

إننا نحن البشر لو تأملنا عالم النجـــوم لأدركنا ضـــآلة عالمنا بالنسبة لهذا الكون الشاسع العظيم فنحن نعيش على سطح كوكب صغير يدور حول نجم الشمس والشمس نجم متوسط من بلايين البلايين من النجوم التى توجد فى بلايين المجرات وبهذا فان الأرض ما عليها من حياة ما هى إلا قطرة فى محيط لا نهائى يحكمه الواحد القهار بأمره (كن) .

فهذه النجوم والكواكب تسير فى الفضاء بسرعة هائلة ولا يصدم بعضها البعض علما بأنها لا تسير فرادى بل فى جماعات وحشود كالأسرة الواحدة حيث تستقل كل أسرة بذاتها وفق تقدير الله سبحانه وتعالى وتنفذ أمر ربها الذى أخضعها لقوتين إحداهما قوة الجاذبية وثانيهما القوة الطاردة المركزية(٤٩) .

فكل مجموعة شـــمس(٥٠) تجذب كواكبها اليها بقوة الجاذبية والكواكب تحاول الابتعاد عن شمسها بقود الطرد المركزية والنتيجة أن الكواكب لا تسقط على الشمس ولا تبتعد عنها وذلك لتساوى القوتين فسبحان القائل « وكل فى فلك يسبحون »(٥١) ان قول الله تعالى شأنه :

---

(٤٩) تأملات علمية تنطق بقدرة الله — د. عز الدين فراج — دار الفكر ص ٩٧ : ١٠٤ بتصرف .

، بيار روسو ترجمة د. خليل الجر — من الذرة الى النجم — المنشورات العربية ص ١٠٦ : ١٢٢ بتصرف .

، اندريه بواشو — ترجمة د. خليل الجر — الشمس والأرض — المنشورات العربية ص ١٥ : ٣٧ بتصرف .

(٥٠) اكتشف العلم فى العصر الحديث شموسا غير شمسنا وهذه الشموس تدور حولها كواكب وهذه الكواكب قد تدور حولها اقمار وبهذا تعددت الشموس والاقمار فى هذا الكون وقد ذكر أن عدد الشموس بالكون اكثر من مئة بليون شمس . كما اكتشف العلماء ان شمسنا من النوع المتوسط وتبعد عنا بثلاثة وتسعين مليون ميل .

الكون والاعجاز العلمى للقرآن — د. منصور حسب النبى — دار الفكر من ص ١١٧ : ١٥٢ بتصرف .

(٥١) يس من آية ٤٠

« فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » بين به الله أن السماوات وما فيها لها قوانينها ونظمها التى تدل على ما له تعالى من قيومية وهيمنة ولذلك وصف الله قسمه بالنجوم بأنه (عظيم) لأن خلقها وثباتها فى الموضع الذى حدده لها الخالق ودورانها فى فلكها بدقة ونظام واستمرارا لأمر عظيم لهذا فعلى أصحاب الشمال أن يتدبروا : أهم الذين خلقوا هذه الشموس وكواكبها ؟ وخلقوا لها ميلادها ومنهج حياتها وميقات وفاتها ؟ اذن لمن الأمر ؟ إن من له الأمر فى الارض له الأمر فى السماء سبحانه الواحد الأحد .

لقد وهب الله لعباده قطرة من علمه فمن عليهم ببعض أسرار خلقه فى الأرض والسماوات ليهتدوا الى ما له من قدرة مطلقة وعظمة شاملة كاملة وقيومية تامة ولذلك فان عبارة (لو تعلمون) دلت على أن ما يعطيه الله لعباده من علم فى السماوات أو فى الأرض بقدر رحمة منه تعالى بعقول عباده لأنه أعلم بدرجة استقبالهم للعلم .

وعلينا أن نذكر فى هذا المجال أن لله وحده أن يقسم بأى مخلوق من مخلوقاته وعلى الانسان ألا يقسم إلا بالله الواحد الأحد(٥٢) .

واعلم أيها الانسان أن الله هداك لبعض أسرار العائلة الشمسية لتعلم أن ما كتب على بعض أفرادها من انفجار وموت سيطبق على شمسنا وعلى كوكب الأرض وذلك يدل على واقعية الواقعة وقد عقب الله تعالى شأنه بعد قسمه بمواقع النجوم بقوله تعالى :

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ) .

---

(٥٢) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — جـ ١٧ ص ٢٢٤ — بيروت — احياء التراث .

وقول الله السابق هو مرمى قسمه بالنجوم والمراد بيان ما للقرآن من علو المنزلة وشرف المكانة وصدق الاخبار وبيان ما لمحمد صلى الله عليه وسلم من شأن فقد اختاره ربه رب العالمين ليبلغ أمانة القرآن الكريم المنزل من قبل الواحد الأحد ذلك الكتاب الكريم الذى سيبقى أبد الدهر غضا فياضا جوادا يعطى للبشر الحقائق الواقعية التى تمس نفوسهم وكونهم ويخبرهم بغيبيات الآخرة وهى غاية دنياهم القصيرة •

فالآية الشريفة « إنه لقرآن كريم » دعوة من الله لعباده أصحاب الشمال للايمان بالقرآن الكريم الذى تبدأ خطواته الأولى باعلان الطاعة لله وما طاعته تعالى الا فى قول « لا إله الا الله محمد رسول الله » لتنمو بعد ذلك المراحل الايمانية التى ستكون سببا فى سعادة الانسان دنيا وآخرة •

وقد وصف الله قرآنه بلفظة (كريم) لبيان شدة قربه من مفهوم العام والخاص فى كل زمان ومكان فهو كريم لمن أراد أن يرتشف من نهره العذب المتجدد حيث يروى كل ظمآن ويمد كل جيـــل بمفاتيح نهضته وتقدمه • كما وصفه الله تعالى بلفظة « مكنون »[٥٣] ليبين سبحانه مدى حفظه للقرآن الكريم فهو مصون عن التبديل والتغير والمعنى يتحدى به الخالق أصحاب الشمال وعمالقة الكفر فلن يستطيعوا مسه بقصد تغير حرف أو تبديل المعنى المراد •

لأنه محفوظ بعين الله وسيبقى الروضة الفيحاء المثمرة التى تعلن كل ثمرة من ثمارها عن وحدانية الفرد الصمد •

وقد ذكرت بعض كتب التفسير أن لفظة (المكنون)[٥٤] تعنى قلب المؤمن الذى يحفظ كلام الخالق ويشعر بما فيه من التبشير وحســـن الجزاء والراجح أن المكنون ترمى الى المحفوظ من كل تغير وتبديل

---

(٥٣) مكنون : محفوظ مادة / كنن / لسان العرب •

(٥٤) روح المعانى : الالوسى — بيروت — ج ٢٧ ص ١٥٤ •

فالقرآن الكريم جعله الله كتابا للعبادة والبحث والاستنباط وقد يتناوله أصحاب الشمال لمعرفة واقعية بعض الظواهر التى ذكرت فيه .

وهذا الكتاب الكريم المكنون الذى يضم بين طياته الدنيا والآخرة لا يمسه إلا المطهرون(٥٥) واذا تأملنا معنى المس نقف على ما فى القرآن الكريم من كنوز وأسرار عظيمة عظم القائل الذى أنزله على نبيه الأمى فمهما وقف العلماء فى كل مجال على ما فيه من ذخائر كانت مكنونة من قبل ما هى إلا قطرة فى محيطه العظيم ثم يتجدد عطاء القرآن الكريم المكنون للجيل التالى ليكون قطرة فى محيطات مطلقة لا يحيط بها إلا العليم الخبير ولذلك قال الحق لا يمسه . أى لا يصل الى قطرة من محيطات أسراره ويرتوى من حوضه العذب إلا من تطهر من الشرك هنا يكون المسمى نابعا من البركات الربانية والأنوار القدسية وعلى سبيل المثال لا الحصر ينظر الأديب المؤمن بوحدانية الله جل علاه لبعض آيات القرآن الكريم فيفيض عليه القرآن بوحى الله تعالى لأنه كريم جـواد ثم يأتى بعده أديب آخر ويتناول نفس الآيات فيفيض عليه القرآن بمفاهيم وخواطر جديدة تختلف تماما عما توصل اليه الأديب الأول ويقرأ القارىء ما ذكره هذا وذاك فيجد فى تأملاتها وخواطرهما حـلاوة وطلاوة وثراء ولطائف تمس الوجدان وتجلى الحقائق التى تعلن مع كل متأمل « أنه لا اله الا الله محمد رسول الله » فالآية الكريمة (لا يمسه إلا المطهرون) تبين أن القرآن الكريم سيظل بكرا وفياضا فى العطاء وأن ما يعطيه للمتأملين فى أسراره لا يعد إلا قطرة فى محيطه اللانهائى وذلك يرجع لوصفه أيضا بالكريم لأن الانسان بتكوينه الفـكرى والوجدانى لا يتحمـل اشراقاته وأنواره

---

(٥٥) المطهرون : الذين طهروا انفسهم من الحدث الأصغر والأكبر أو الذين طهروا انفسهم بالاستغفار او هم المطهرون من الكفر وهم ايضا السفرة الكرام والرسل الذين تطهروا من الذنوب .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٦ — بيروت — احياء التراث .

، روح المعانى — الألوس — ج ٢٧ ص ١٥٤ — بيروت .

المستمدة من قائله جل علاه فهو كريم يعطى لكل متطهر من الشرك وفق تكوينه البشرى الذى جهزه الله له وقد يتناول أصحاب الشمال القرآن الكريم بالتأمل والبحث ثم يعلمون علم اليقين واقعيته فى أنفسهم وفى الكون المحيط بهم المسخر لهم من قبل الله الواحد الأحد ولكن عمى بصيرتهم وخبث نفوسهم لا تجعلهم يشعرون بما له من جلال وقدسية وأنوار تعلن عن وحدانية الخالق .

اذن فقد جاء النفى فى قوله تعالى (لا يمسه الا المطهرون) — والله أعلم — لبيان تأثير القرآن الكريم على قلب القارىء المتأمل المؤمن بوحدانية الله فمن أقبل على القرآن الكريم بالبحث والتأمل وهو مؤمن ايمان اليقين بأنه لا اله الا الله محمد رسول الله يمس أنوار القرآن الكريم وبركاته ويصل — باذن الله — الى هدفه من البحث ويكون وصوله بشرى ورضوان أما الجاحد فيصل أيضا باذن الله — الى هدفه من البحث ولكنه لا يشعر بما فى القرآن من أنوار ومفاتيح هادية ولا يمس بركاته وما له من منزلة وأسرار ويكون وصوله الى هدفه حجة عليه ولن يزيده الا خسارا . وهذا يتفق مع قوله الخالق العظيم :

(— قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً)[٥٦] .

صدق الله العظيم

وقوله جل علاه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَاراً)[٥٧] .

صدق الله العظيم

---

(٥٦) فصلت : من آية ٤٤

(٥٧) الاسراء : آية ٨٢

وقد ذكر عما يتصــل بمضمون الآية الشريفة « لا يمسه الا المطهرون » أن ابن عبــاس[٥٨] كان ينهى أن يمكن أحد من اليهــود والنصارى من قراءة القرآن الكريم[٥٩] وان صح هذا عن ابن عباس فهو مسلك نبع من شدة غيرته وحرصه على القرآن الكريم ولكن على كل مؤمن بالجوهرة المكنونة والروضة الفيحاء المثمرة من كل الثمرات « القرآن الكريم » العلم بأن الحق تعالى شأنه قصر حفظ القــرآن الكريم على ذاته القدسية وليس لأحد من البشر تدخل فى هذا الأمر . قال تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[٦٠] .

وعلى هذا فكل عباد الله قد يتناولون القرآن الكريم بالبحث والتأمل والفيصل يبرز فى درجة الأنوار الربانية التى يمسها كل متطهر وفق درجة تطهره التى ترتبط بدرجة قربه من الله الواحد الأحد .

وقد عقب الحق بعد الآية الشريفة السابقة :

(لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرونَ) .

---

(٥٨) هو عبد الله بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخت زوجة ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم ضمه اليه وقال اللهم علمه الحكمة كان لابن عباس بحــكم قرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وصغر سنه اختلاط كثير مكنه من كثرة الرواية عنه الى جانب ميله الطبيعى الى تحصيل الحديث وشغفه العظيم به . فاق ابن عباس غيره فى العلم والفقه والحديث . توفى بالطائف سنة ثمانية وستين من الهجــرة .
الحديث والمحدثون — ا — محمد محمد أبو زهو — الطبعة الأولى ١٩٥٨ م .

(٥٩) الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٦ — بيروت إحيــاء التراث .

(٦٠) الحجــر : آية ٩ .

بقــوله تعــالى :

(تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَــالَمِينَ) .

والقرآن الكريم منزل من قبل الله تعالى ولكن الله جعله تنزيلا ليبين أن كل قضايا واقعية ملموسة للبشر أما قوله تعــالى من رب فقد هدى الله به عباده بطبيعة العلاقة التى يجب أن تقوم بين البشر والقرآن الكريم فالقرآن تنزيل أمامكم صدق كل قضايا وواقعيتها نزله رب العالمين الذى يربى عباده التربية التى بها استقامة أمورهم ومنبع سعادتهم وما يحقق لهم الفوز فى دار الحق وقد جعل الحق تعــالى شأنه منهج تربيته الشريفة العليا فى القرآن الكريم أما لفظة العالمين فى قوله (من رب العالمين) فشهد فيه الخالق بوحدانيته فهو تعالى شأنه رب الأرض وما فيها ورب السماوات وما تضم من أسرار ورب الدنيا والآخرة رب كل شىء يراه الانسان ورب كل شىء يغيب عنه فهو رب العالمين المتفرد بأمر كل مخلوقاته . أنظر أيها الانسان لمعنى قول ربك « رب العالمين » وتأمل فى منهج الخلق فى نفسك وفى غيرك من المخلوقات الواقعية لك تجد أن ربك الواحد الأحد ربى كل مخلوقاته على المنهج الذى يجعلها تتكيف مع مراحل نموها ففى داخلك أنت أيها الانسان أعصاب وخلايا وغدد تقوم بوظائف دقيقة منظمة وبصفة استمرارية لا دخل لك فيها فتأمل مثلا المخ[٦١] ذلك المعمل الكيميائى المعقد الذى يعمل حتى أثناء نومك من رباه على الالتزام بالمنهج فى البشر جميعا انه يؤدى وظيفته فى الأبيض والأسود والأصفر بلا مغايرة فمادته وعدد خلايا ومهمته التى وكل بها واحدة دون تدخل من الانسان فمن رباه ؟ أى علمه إنه الله رب العالمين وتأمل أيضا فى أمم الحيوان والنبات

---

(٦١) راجع ملعومات عن المخ فى بيولوجية الايمان د. محمد محمود عبد القادر — الفصل السابع ص ٩٣ لنهاية الكتاب تحدث مؤلف الكتاب عن تكوين المخ ووظيفته ودوره فى ضبط حياة الانسان حديثا يدعو فيه الى الايمان بعظمة الواحد الأحد .

والشموس والأقمار والكواكب ان من رباك هو الذى رباها لأنه الواحد الأحد رب العالمين الذى تراه ظاهرا قريبا عظيما وتراه باطنا قديرا ليس كمثله شىء فتعالى الله عما يشركون •

وتذكر أيها الانسان أن ربك ورب كل شىء جمع مخلوقاته تحت قانون واحد ألا وهو الحياة والموت فلا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه فمتى تحققت وحدانية منهج المخلوقات تحققت وحدانية خالقها جل علاه رب العالمين •

ان الله تبارك وتعالى أرشد عباده الى واقعية وحدانية ربوبيته وقد تحقق للبشر جميعا تلك الحقيقة فما ثبات منهج المخلوقات فى التكوين وأطواره واستمراره إلا دلالة على وحدانية الخالق وبالفطرة لو كان فى الأرض أو السـماء إله غير الله لاضطرب منهج الخـلق ولذهب كل إله بما خلق قال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (٦٢) .

صدق الله العظيم

لقد دلت الآية الشريفة : « تنزيل من رب العالمين » على حقيقتين :

أولهما : وحدانية الخـالق •

ثانيهما : صدق القرآن الكريم •

وما دام تحقق للبشر وحدانية وربوبية الخالق فقد تحقق أيضا صدق القرآن الكريم فلو كان من عند غير الله لحدث فيه اختلاف كبير كما لو كان هناك إله غير الله لاختل منهج الخلق •

---

(٦٢) الانبياء : من آية ٢٢ .

لقد ربط الله تعالى شأنه بين ذاته الشريفة وبين القرآن الكريم حين جعل القرآن الكريم تنزيله ليتحدى به أصحاب الشمال ويعلن لهم أنه المهيمن على مخلوقاته الحافظ لقرآنه الكريم . فهل من مغير ؟

وبعد أن أخبر الله بان كتابه الكريم منزل من قبله وأنه الحافظ له قال جل علاه :

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ)(٦٣) .

وفى هذه الآية يدعو الله عباده أصحاب الشمال لليقظة الوجدانية والرجوع الى الفطرة السوية التى فطرهم عليها ربهم ورب العالمين ولفظة الحديث فى « أفبهذا الحديث .... » تكشف عما جاء فى سورة الواقعة خاصة والقرآن الكريم عامة من قضايا تتناول الوجود الدنيوى والخلود فى الحياة الآخرة وأما الضمير (أنتم) فهو خطاب صريح موجه لأصحاب الشمال الذين كذبوا بالقرآن الكريم المنزل من قبل الله الواحد الأحد أما قوله تعالى « مدهنون » أى مكذبون لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من قبل ربه وحفظ فى كتاب مكنون فيشير الى استمرار جحودهم بتكذيبهم لصدق القرآن الكريم ولرفضهم أنه من رب العالمين مع أن ربهم أخبرهم فيه بقضـــايا متنوعة وهداهم سبحانه الى واقعيتها ولكنهم استحبوا العمى ان الآية الكريمة « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » بينت موقفهم كما عرضـــت بسفاهة عقولهم فلو كانوا يعقلون ما كذبوا الحق الذى ظهرت آياته جلية واضحة ولقد بين الحق فى الآية الكريمة أيضا ما للقرآن من ذخائر وأنوار فقوله تعالى

---

(٦٣) أنتم مدهنون : مكذبون .
المدهن : المنافق او الكافر .
والادهان والمداهنة والتكذيب والكفر والنفاق واصله اللين .
وداهنت بمعنى واريت وادهنت بمعنى غششت .
الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٨ — بيروت — احياء التراث .

« أفبهذا ••••• » تبين ما للقرآن من كنوز عظيمة وآثار عالية • ان الله تبارك وتعالى فى الآية السابقة يحذر ويعظ عباده أصحاب الشمال قائلا : كيف تكذبون أيها السفهاء بالقرآن العظيم وقد تجلت أنواره وأشرقت كراماته •

ولقد تجسد كفرهم وحماقة تفكيرهم وخبث نفوســهم فى قوله تعــالى :

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) •

والذى عقب به الله بعد الآية الشريفة :

(أفبهذا الحديث —) •

وجملة (تجعلون رزقكم ••••) تحذير من الله لعباده أصحاب الشمال الذين نسبوا الرزق الذى يرسله الله لهم لمخلوقات مثلهم ونسوا الخالق الحقيقى للأسباب والمسببات المهيمن على قوانين الكون وكان يجب عليهم شكره وحمده لأنه رب العالمين الواحد الأحد • وقد كشفت جملة (تجعلون) استمرار جحودهم وتبديل شكره تعالى بتكذيب قرآنه الكريم العظيم الذى تحداهم به الحق فلم يستطيعوا تغير أى حرف فيه •

أما قــوله تعالى « رزقكم »[٦٤] فتعنى شــكركم والمــراد

---

(٦٤) ذكر عن ابن عباس : مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا هــذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا والمراد ان هؤلاء الكفار اعتقدوا أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر . ولفظة الرزق تعنى الشكر .

روح المعانى : الألوسى — ج ٢٧ ص ١٥٦ ، ١٥٧ — بيروت — (بتصرف) .

، الجامع لأحكام القرآن الكريم — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٢٩ — بيروت .

— والله أعلم — بيان موقف أصحاب الشمال فى كل زمان ومكان فهم لا يشكرون الله ولكن يحاولون ربط الاسباب بالمسببات وينسون الخالق بل ويتضاعف جحودهم ويزداد عماهم فقد رزقهم الله بكل الأسباب الهادية لنفوسهم وعقولهم كما أنعم عليهم بكل السبل التى تحقق سعادتهم فجحدوا بهذه النعم التى تستوجب الشكر بشركهم بالله الواحد الأحد .

ان الشكر نتيجة حتمية مرتبطة بالرزق فالشكر نتيجة لعطاء نافع فلماذا ذكر الله الرزق ولم يذكر تعالى ذكره فى الآية الشكر صراحة

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) .

مرجع ذلك — والله أعلم — أن الله تعالى شأنه يريد تذكرة عباده أصحاب الشمال بعظم أرزاقه التى تستوجب الشكر فصرح بالرزق لواقعيته لهم ولم يصرح سبحانه بالشكر لأنه غير واقع منهم وما شكرهم إلا بتوحيد سبحانه بالايمان التام بالقرآن الكريم وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

إن أصحاب الشمال يتمتعون بنعم الله فى الدنيا تلك النعم التى ستتحول عنهم يوم القيامة لتصبح وسيلة من وسائل عقابهم الأليم الذى قدموا أسبابه بأنفسهم ومع ظلمهم لأنفسهم وجحودهم لحق رب العالمين يرحمهم ربهم الأعلى ويدعوهم تارة أخرى لتوحيده تعالى وذلك بتقديم الدليل الواقعى لوحدانيته سبحانه قال تعالى :

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ) .

فالقضية السابقة وهى قضية خروج الروح من الجسد ساقها الحق ليدعوهم بها الى أبواب رحمته وغفرانه فذكرهم تعالى شأنه

ببلوغ الروح الى الحلقوم وهى قضية واقعية يلمسون حدوثها ويرغبون فى دفعها عن أنفسهم وعن أحب الناس لهم ولكنهم يعجزون ويتحدى الله عمالقة الكفر فى الآية الشريفة بما يلى :

١ — ثبوت وحدانيته سبحانه وتفــرده بأمر مخلوقاته وعلى أصحاب الشمال الدعاء لمن يعتقدون أنه ربهم من دون الله لرد أرواحهم فهل من مجيب ؟ إذن فهو الواحد الأحد المتفرد بأمر الحياة والموت .

٢ — احتفاظه سبحانه بسر الحياة والموت فلم يعلم الله أحداً من عباده كيفية نفخ الروح ولا كيفية نزوعها فلو كان لهم إله غير الله الواحد الأحد فعليه اخبارهم بحقيقة الروح التى تكمن فى داخلهم فهل هم فاعلون ؟

إن قول الحق « فلولا اذا بلغت الحلقوم » يشير الى اللحظات التى تتكشف فيها الحقائق ويقف الانسان على الغيبيات التى أخبره بها ربه الواحد الأحد فى تلك اللحظات لا يستطيع الانسان أن يتحدث بما يرى فلقد خلق الله له الحياة وخلق فيها كل سبل الهداية ودعاه سبحانه الى الايمان بوحدانيته دعوة اختيارية كما خلق له الموت وفيه يؤمن الجاحد الايمان القهرى الجبرى بكل ما كذب به ولذلك فالآية الشريفة تعطى معانى : التحذير من الشرك مع الوعد والوعيد كما أنها تبين المرحلة الأولية لخروج الروح من الجسد وقد عقب الله بعد هذه الآية (فلولا إذا ....) بقوله « وأنتم حينئذ تنظرون » والمراد — والله أعلم — تنظرون حال المحتضر وتعلمون وقوع هذا الحال لكم ومع ذلك تعجزون عن دفع سكرات الموت وعبارة (تنظرون) نقلت الحالة الوجدانية لأصحاب الشمال الذين يحيطون بالمحتضر فهم فى حيرة ودهشة ورفض للحدث الذى يكون فيه المحتضر فى حضرة ربه العظيم والملائكة تعالج خروج روحه فقول الله « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » وضحت حقيقة واقعية لا ينكرها منكر فالمحيط بالمحتضر

لا يعلم حقا كيفية خروج الروح ولا يرى الملائكة الكرام لأن المحتضر ينتقل الى العالم الجديد الذى يعد بداية للجزاء والمحتضر فى هــذه الحالة يحسد الحى على شىء واحد ألا وهو فرصته للايمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

وقد بدأ الله تعالى الآية بقوله (ونحن) ليهدى أصحاب الشمال الى وحدانيته وتفرده فى أمر الايجاد والعدم فكما كان له أمر الخلق والحياة له أيضا أمر الموت أما لفظة (أقرب) فتشير الى تجلى الحقائق الغيبية للمتوفى أما قوله تعالى (ولكن لا تبصرون) فهــو ينقل قمة التحدى لمن لا يؤمن بخالق كل شىء وعلى أصحاب الشمال أن يجيبوا على النفى فى قوله تعالى (ولكن لا تبصرون) . فاذا أصيبوا بالصمت فعليهم تدبر ما يلى : هل يستطيعون وصف الروح ؟ هل يرون الملائكة ؟ هل يدركون التقدير الزمنى عنــد المحتضر ؟ حقا لا يعلمون فلماذا لا يؤمنون إذن بوحدانية المتحدث وصدق تنزيله القرآن الكريم والايمان بخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورغم جحودهم وعمى بصيرتهم الا أن الله رب العالمين يدعوهم الى أبواب رحمته فيقــول سبحانه :

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٦٥].

فبعد أن تحداهم الخالق العظيم فى قوله « ولكن لا تبصرون » وهو تحدى بين فيه تعالى عدم رؤيتهم لأحداث الاحتضار وهو أمر واقعى تحداهم بأمر أعظم تعقيدا فقال لهم سبحانه « لو لم تكونوا خاضعين لأمر الله سبحانه ومشيئته وحده فعليكم برد أرواحكم الى أجسادكم فهل أنتم فاعلون ؟ لو كنتم تستطيعون ذلك ما مات أحد منكم

---

(٦٥) غير مدينين : اى غير خاضعين لقدرة الله مملوكين لارادته تعالى . التفسير الكبير — الرازى — جـ ٢٩ ص ٢٠٠ الطبعة الأولى .

فعلام يدل عجزكم ؟ الدلالة المنطقية هى ثبوت وحدانيته تعالى وتفرده بأمر عباده .

إن الآيات الشريفة :

(فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) .

إلى قوله تعالى :

(تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

ختم بها الله تعالى أدلته الهادية لأصحاب الشمال وقد كانت الأدلة الهادية الأولى فى الاطار الدنيوى فذكرهم تعالى شأنه بخلقه للنطفة والبذرة والنار والسحب وكلها سبل حياتهم ليصل سبحانه الى نهاية مطافهم فى الدنيا التى خلقها لهم ألا وهو الموت الكتاب الذى كتبه الله على كل نفس خلقها وقد أقام الله الحجة عليهم فى القضايا الأولى بتقريرهم أما قضية حتمية الموت فلم تعتمد على التقرير ومرجع ذلك — والله أعلم — أن لحياتهم فترة زمنية لهم فيها حرية الاختيار للايمان بالله الواحد الأحد فالتقرير جاء لتنبيه فطرتهم وتصحيح منهجهم وذلك لرحمة وعدل ربهم فقد هداهم بالأدلة الواقعية ومنحهم فرصة زمنية للتأمل والتدبر الذى يهدى الى الايمان بوحدانية الله أما قضية الموت فقد اعتمدت على سرد الحقائق الواقعية التى تقع بغتة وفيها يفقد الانسان حرية الاختيار ويصبح مقهورا لا يجدى ندمه فى الشفاعة له فى سورة النساء :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)(٦٦) .

صدق الله العظيم

لقد بين الله لعباده أصحاب الشـــمال بالأدلة الواقعية وحدانيته وصدق تنزيله ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجمع فى سورة الواقعة الرحلة الحية لمشاهد الوجود والعدم أى كمال هيمنته على الحياة والموت وهما محور الدنيا — كما أبرزت سورة الواقعة موقف عباد الله تجاه المنهج فقسمتهم الى السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال وهو الواقع الذى نراه وخص أصحاب الشمال بالجزء الأكثر من الآيات لأنه تعالى بين نزلهم يوم القيامة وبيئتهم وذكر سبحانه لهم الأسباب التى ستؤدى إلى هذا المنزل والمقام بالتفصيل مما يدل على عدله سبحانه فى الجـــزاء الذى أعده لأصحاب الشمال . ولم يفصل سبحانه للمتقين ســـبب نزلهم جناته وتنعمهم برضوانه ولكنه تبارك وتعالى أثنى على السابقين وشرفهم فقال عز وجل :

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(٦٧) .

ولم يذكر سبحانه ذلك لأصحاب اليمين مما يدل على أن السابقين جعلوا ربهم الواحد الأحد قبلة حياتهم فهو سبحانه نورهم فى سعيهم وفى جلوسهم وفى حديثهم ومرحهم ومنامهم فأثنى عليهم ربهم وما أعظم الثناء منه أنه ذروة النصر وقمة التشريف أما نزلهم الجنة والتمتع برضوانه فهو من فيض رحمته ولأصحاب اليمين أيضا رحمته وغفرانه لأنهم آمنوا بأنه لا إله الا الله محمد رسول الله » وكانوا يستغفرون ربهم الواحد الأحد .

وقد جمع الله بين الفئات الثلاث فى نهاية سورة الواقعة وهو جمع يبرز مصير كل فئة بصورة موجزة :

---

(٦٦) النســــاء : آية ١٨
(٦٧) الواقعة : آية ٢٤

(فأمَّا إن كانَ منَ المقرَّبينَ فرَوْحٌ وَرَيحَانٌ[٦٨] وجَنَّتُ نَعيمٍ وَأمَّا إن كانَ منْ أصْحاب اليمين فَسلامٌ لكَ منْ أصْحابِ اليمين * وَأمَّا إنْ كانَ منَ المكَذبينَ الضَّالينَ فنزُلٌ منْ حَميمٍ وَتَصْليةُ جَحيمٍ) :

إن الله تعالى شأنه فصل جزاء كل فئة بصفة مستقلة ثم ذكرهم به فى نهاية السورة الكريمة والجزاء التفصيلى فى بداية السورة وضح المنزل والمقام أى شمل البيئة العامة التى تستقر فيها كل فئة أما فى نهاية السورة الشريفة فأبرز الجــزاء الفردى الذى يحل بالشخص المتوفى فقط وتأمل قوله تعالى فى بداية السورة :

فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة

وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة

والســـابقون الســـابقون *

فالحديث يشمل الفئة ككل فى صورة جماعية وفى نهاية السورة قال تعالى :

فأمَّا إنْ كانَ منَ المُقرَّبينَ * وَأمَّا إنْ كانَ منْ أصْحَابِ اليمَينِ وَأمَّا إنْ كانَ منَ الْمكَذِّبينَ) :

---

(٦٨) الروح : الرحمة والاستراحة والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى وقيل ايضا فى معنى الروح والريحان : أى لا يفارق احد روحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٣٢ — بيروت .

فالحديث يشير الى الفرد لحظة وفاته ورؤيته لمنزلة ومقامه وهى القيامة الصغرى[٦٩] .

فأما ان كان الضمير يعود على المفرد الغائب الذى تقوم قيامته الصغرى .

فمن كان من المقربين فله البشرى التى تنبثق من أنــوار ربه ورحماته وبركاته على المتوفى فيشعر بالرضا والنشوة والسعادة منذ اللحظة الأولى التى تعالج فيها الرسل علاج خروج الروح من الجسد حيث تحية الملائكة فتحمل الريحان من الجنة تقدمه له والمحتضر يرى رؤية واضحة لهذه الأشياء ويتحدث مع رسل الله ويستعجلهم فى إخراج روحه وكيف لا وقد انكشف عنه الحجاب ورأى أنوار الله العليا .

ومن الجدير بالذكر أن الله جل علاه ذكر فى بداية سورة الواقعة ما أعد للمقربين فقال سبحانه :

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فى جنات النَّعِيمِ) :

وفى ختام السورة قال سبحانه :

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ) :

الحديث فى المرة الأولى كان حديثا جماعيا ولذلك جاءت جنات بالجمع وفى المرة الثانية قال الحق « جنت » فوردت جنة بالمفرد مما يدل على أن لكل فرد جنته المستقلة التى يراها مع رؤيته لرضوان ربه

---

(٦٩) القيامة قيامتان الصغرى وهى التى تقع على الفرد والكبرى وهى التى تشمل المخلوقات جميعها .
حقائق البعث — الشيرازى —تحقيق عبد القادر احمد عطا — دار التراث العربى ص ٦٣ : ٦٦ بتصرف .

لحظة الوفاة فهنيئا لهذه الفئة ولكل فرد من أفرادها هنيئا لها فقد عاشت حياتها الدنيا تسبح بحمده وتناجيه فى كل نبضة قلب وتذوب عشقا فى أنواره فأسعدهم حبيبهم بلذة ذكره ثم أرضاهم يوم اللقاء فانطلقت أرواحهم من أجسادهم ترفرف تحت عرشه مكبرة مهللة حتى تستمر نشوتها فما استمرار النشوة فى العالم الآخر إلا بدوام ذكره سبحانه وتعالى .

وتأتى بعد ذلك الفئة الثانية التى سماها الله تبارك وتعالى بأصحاب اليمين وذكر النعيم الذى أعد لها بالتفصيل ثم ذكر بصيغة موجزة ما أعد لكل فرد منهم لحظة وفاته :

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)(٧٠) :

فبين الله سبحانه وتعالى ما يحدث لكل فرد من أصحاب اليمين عندما تتوفاه رسل الله فهى تبشره بالسلامة والأمن والنجاة من النار ويحملون له السلام والتحية من الله وتردد له الملائكة عبارات طيبة مثل سلمت من الشيطان وسلمت من السيئات وسلمت من الشرك الذى يقود الى النار(٧١) وقد ترمى الآية الشريفة :

(فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

---

(٧٠) اى أن أصحاب اليمين يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم او يسلم على المتوفى ملك الموت . وقيل أنه يحيا بالسلام فيسلم عليه منكر ونكير وتسلم عليه الملائكة عند بعثه .

الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٣٣ — بيروت .

(٧١) روح المعانى — الألوسى — ج ٢٧ ص ١٦٠ — بيروت — دار التراث .

التفسير الكبير — الرازى ج ٢٩ ص ٢٠٢ — الطبعة الأولى بتصرف .

حضور أصحاب اليمين الذين ماتوا وسبقوا المتوفى فهم يحضرون للاحتفال به بتقديم التهنئة والبشرى والسلام عليه فالخطاب (لك) موجه لمن تتوفاه الملائكة(٧٢) والله أعلم إن الانسان عندما يولد فى الدنيا يحتفل أهله بقدومه احتفالا يليق بوضعهم الاجتماعى وكذلك مولود الوفاة فهو مولود جديد فى نطاق الغيب يحتفل به أهل فئته احتفالا بليق بعظمة المعد الذى يأمر كل فئة باســتقبال ضيفها الجديد حيث يحتشدون فى مواكب نورانية تتوجهم أضواء التوحيد ويظلهم شعار النجاة « لا إله الا الله محمد رسول الله » •

ويجب التنبيه الى أن لكل فرد من السابقين وأصحاب اليمين لحظة الوفاة الاحتفال الذى يناسب التزامه بمنهج الله • ويأتى بعد ذكر أصحاب الفوز العظيم أصحاب الحسرة والندم أصحاب الشمال :

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) :

والآية تبين المصير الذى كتبه الله على المكذبين الضالين بعد انتهاء حياتهم الدنيا ويتمثل هذا المصير فى الجزاء العادل الذى مهدوا له بموقفهم تجاه الحق فقد هداهم الله بالأدلة الواقعية التى تناولت الدنيا فى شريط حى يضبطه قانون البداية والنهاية ويطبق على كل حى إلا أنهم استحبوا العمى وأضلوا فطرتهم ولذلك لهم عذاب الهون منذ اللحظة الأولى لوفاتهم فمن كان من هذه الفئة المكذبة الضالة فسيرى بعد كشف الحجب جزاء تكذيبه وفى هذه اللحظة يقول ربى أرجعون ولكن هيهات فقد منحه الله فترة زمنية لعله يهتدى ولكنه استكبر • ولذلك فان لحظة انتهاء دنياه ستكون بداية لحياة الندم والحسرة والعذاب ولا اختيار له فى

---

(٧٢) قيل أن المعنى سلام لك يا محمد من أصحاب اليمين .
الجامع لأحكام القرآن — القرطبى — ج ١٧ ص ٢٣٣ — بيروت .

عالمه الجديد الذى أعده له الخالق من مسكن ومأكل ومشرب كما أعد له دنياه القصيرة من نفس العناصر ودلت لفظة « نزل »[٧٣] على طبيعة المشهد الاستقبالى لمن كان من أصحاب الشمال كما دلت على انتقالهم الى بيئة جديدة أما الجار والمجرور (من حميم) فبين كيفية هذا النزل مع بيئته فعندما تتوفى رسل الحق المكذب الضال الذى أشرك بالله الواحد الأحد وكذب بصدق القرآن الكريم وبنبوة المصطفى الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تقرعه تقريعا عنيفا وتعبس فى وجهه وتحمل له من نار جهنم ما يلفح روحه وبدنه كما تعد له اســتقبالا يضاعف من امتهانه وإذلاله واذا كان المتوفى من السابقين وأصحاب اليمين يستقبله أهل فئته فكذلك المتوفى من أصحاب الشمال تستقبله فئته بوجوه تعلوها غبرة الندم وألم الحسرة وظلام اليأس والاستسلام ويجب العلم بأن لحظة الوفاة يخرج فيها المتوفى من النطاق الزمنى والمكانى لحياة الدنيا الى نطاق آخر وفى هذه المرحلة الانتقالية يصبح الانسان وليدا لحياة جديدة يرزق فيها بحواس تختلف فى وظائفها عن حواسه الدنيوية فبصره وسمعه وأحاسيسه تناسب عالمه الجديد وهو ما قاله الحق جل علاه فى سورة ق :

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)[٧٤] :

ان لحظة لقاء الله جل علاه هى لحظة الميــلاد الحقيقية للمتوفى وما يعد له فيها من استقبال هو الاســتقبال الذى يحدد مكانته فى دار الحق .

وقد جعل الحق جل علاه قانون النوم والأحلام هاديا لواقعية

---

(٧٣) روح المعانى — الألوسى — ج ٢٧ ص ١٦٢ — بيروت .
، التفسير الكبير — الفخر الرازى — ج ٢٩ ص ٢٠٣ — الطبعة الأولى — بتصرف .
(٧٤) ق : من آية ٢٢

ادراك الميت لبيئته الجديدة • فالنائم يرى ويسمع ويتحدث ويفرح ويحزن فيضحك ويبكى ويجرى بحواس تختلف فى قوانينها عن قوانين الحواس فى اليقظة[٧٥] فالنوم ورؤية الأحلام كالموت ورؤية المشاهد التى أخبر الله بها كل عبد من عباده لحظة الوفاة • ويجب التنبيه الى أن الأحلام لا اختيار للانسان فيها مما يؤدى الى واقعية الرؤية التى كتبها الله عليه لحظة وفاته • قال تعالى فى سورة الزمر :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » • صدق الله العظيم

فالحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه الكريم فقد رحم عبده من الحيرة والقلق والاضطراب فجعل له فى دنياه الفانية الصغيرة كل ما يحاكى عالم البقاء الرحيب وفى ختام سورة الواقعة قال ربنا جل علاه :

(إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

بدأ قول الله بحرف التوكيد إن وعقب سبحانه باسم الاشارة هذا ليبرز سبحانه أن كل ما جاء فى سورة الواقعة من قضايا هو حق اليقين ووصف الله للقضايا التى وردت بكلمة حق يبرز بجلاء دعوته تعالى لعباده الى أبواب رحمته دعوة أقيمت على أدلة واقعية فى عرض يتسم بالوضوح والقرب لفطرة الخاص والعام بالاضافة الى التسلسل المنطقى الذى يتغلغل فى أعماق الكيان الانسانى معلنا أنها دعوة الحق المبين

---

(٧٥) القضاء والقدر : فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى — ص ٣٧ : ٤٢ بتصرف .

وقد شدد الله على عباده فى دعوته لهم فجعل الحق يقينا واقعا لكل نفس بشرية .

إن الآية الشريفة « ان هذا لهو حق اليقين » دعت الى الايمان التام بجميع القضايا الدنيوية وقضايا ما بعد الموت من غيبيات أخبر بها الحق تبارك وتعالى وعجبا للانسان الجاحد الذى لا يؤمن بالغيب مع أنه لو نظر نظرة عابرة فى دائرة حياته لوجد أنها تشمل الماضى الذى أدركه والحاضر الذى يعيشه ويحيط ببعض ملابساته ولا يعلم نتائجه ثم المستقبل وهو غيب عنه بكل ما فيه من ملابسات ونتائج ومع ذلك يؤمن بوجوده وبعد دعوة الحق لعباده أمر كل واحد منهم بتسبيحه تعالى شأنه فقال « فسبح باسم ربك العظيم » وهى الآية الشريفة التى ختمت السورة المباركة ووردت الآية عقب ذكر الله لما سيراه كل متوفى لحظة وفاته من مشاهد الغيب التى وصفها الله بأنها الحق اليقين وعلى ذلك فحرف (الفاء) جاء ليبين أن التسبيح ترتب على رؤية كل ما وعد الله به ووصفه بأنه الحق اليقين والتسبيح أى التنزيه صدر أمر الله فيه للمتوفى ســواء أكان من السابقين أو أصحاب اليمين أو أصحاب الشمال والله بهذا يبين لعباده أن تسبيحه لا يقتصر على الأحياء بل كتبه سبحانه على من يموت من عباده لأنه ينتقل بالموت الى عالم جديد رحيب يظل فيه مسبحا ولقد أمر الله عباده بالتسبيح لأنه نور للقلب وجلاء للبصيرة ونشوة للنفس ودفعة لمنزلة كل موحد ونماء لرصيده .

والآية الشريفة ذكرها الله مرتين الأولى عقب ذكره تعالى لأدلة الخلق من عدم[٧٦] والتى اعتمدت على تقرير عباده واعترافهم الضمنى بتمام تفرده . والثانية عقب حديثه تعالى عن جزاء كل عبد من عباده لحظة الوفاة ولذلك فالأمر بالتسبيح جاء ليشكل دائرة الضوء الحقيقية ألا وهى تفرد الله بأمر البداية والنهاية وفيهما له وحده التسبيح وقد

---

(٧٦) آية ٧٤ .

خاطب الله تعـالى شأنه فى المرتين كل عبد من عباده قائلا : « ربك العظيم » ليذكر كل عبد بتمام ربوبيته ووحدانيته فهو وحده القيوم والمهيمن على أمر عبده فى البداية والنهاية أما لفظة العظيم فتشير الى وضوح دلائل العظمة لكل نفس بشرية إن الآية الكريمة :

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

نداء من الله لكل عبد من عباده يقرأ أو يسـمع القرآن الكريم ليشعر أن ربه يناديه بعينه فيذوب فى ذات ربه فينعم بلذة الفناء التى تؤدى الى الحقيقة اليقينية ألا وهى التوحيد تلك الحقيقة التى تفيض على الانسان بالرقى والسمو ، الأمن والاطمئنان لأنه عندما يسبح ربه العظيم يدرك أنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات وهو الظاهر والباطن وليس لمخلوق قدرة على تغيير ما كتبـه الله عليه فهو رب العـالمين .

لقد ختمت سورة الواقعة بالأمر من الله لعباده لتسبيحه جل علاه وافتتحت سورة الحديد التالية لها بالتسبيح قال تعالى :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٧٧) :

ففى فاتحة سورة الحديد أعلن الله سبحانه وتعالى أن كل مخلوقاته تسبحه مدركة تمام ربوبيته تعالى وورد الفعل ماضيا « سبح » للدلالة على ثبوت التسبيح لذاته العليا .

ومن الجدير بالذكر أن الله أمر بالتسـبيح فى نهاية الواقعـة « فسبح باسم ربك العظيم » وعقب تعالى فى الحديد بقوله « سبح لله ما فى السماوات والأرض » فالأمر بالتسبيح فى سورة الواقعة ورد فى

---

(٧٧) الحـديد : آية ١

دائرة النفس الانسانية لأن منها الجاحد الذى أحب العمى فأمره ربه بالتسبيح عسى أن يهتدى وتتفتح بصيرته فالأمر إذن هو نداء من الله بنى على حبه سبحانه لعباده فالتسبيح للمؤمن كرامة وعزة وكبرياء وللجاحد دعوة للنور وفى سورة الحديد ذكر سبحانه أن التسبيح واقع على كل المخلوقات مكتوب عليها منها ما هو فى محيطنا البشرى ومنها ما يغيب عن ادراكنا ومما يغيب عن ادراكنا تسبيح خلايا وأعصاب أهل الشـــمال الذين يشركون بالله الواحد الأحد بل ويتعوذ لسانهم من شركهم وينتظر اللحظة التى يسلبهم ربهم فيها الاختيار ليسبح تسبيحا كثيرا .

إن أمر التسبيح فى خاتمة الواقعة ورد للقريب الظاهر فى نفس الانسان (ربك العظيم) وفى فاتحة سورة الحديد جاء للباطن الذى لا تدركه الأبصار الأعلى الذى ليس كمثله شىء ولذلك جاء التسبيح مقترنا باسم « الله »[٧٨] « سبح لله » أى سبحت لذاته العليا التى حجبت لجلالها كل مخلوقاته فهو سبحانه له الصفات الالهية المتفرد بالملك والملكوت الذى تعجز العقول عن إدراك أبعاد صفاته سبحانه العلى المتعال .

---

(٧٨) الله : هو الاسم المفرد العلم لذاته القدسية الجامع لجميع الصفات الالهية والحياة الأزلية والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام المنعوت بنعوت الربوبية المتفرد بالوجود .

ويعد هذا الاسم الأعظم اكثر عددا فى القرآن الكريم من جميـــع أسمائه العظيمة .

ولله الأسماء الحسنى — عبد الحليم محمود — ص ١٣ .

الخـــــاتمة

وبعـــــــد ..

فقد عشنا فى رحاب سورة الواقعة المباركة التى عالجت بعض قضايا الغيب علاجا موضوعيا واقعيا جسد صور الغيب تجسيدا يقرب الهدف المراد للخيال البشرى فيستطيع بيسر وسهولة تجميع خيوط القضايا الغيبية من واقعها الدنيوى فتصبح الصـــور الغيبية بجميع ملامحها ماثلة حية جلية أمام المتخيل كما ناقشت سورة الواقعة الدلائل التى تهدى لوحدانية الله تعالى مناقشة منطقية من خلال المنهج الواقعى الذى يمثل البـــداية والنهاية أى الحيـــاة والموت وهيمنة الله عليهما واحتفاظه بسرهما وقد جاءت الآيات المباركة قريبة المأخذ للخاص والعام لأنها دعوة ربانية ونداء من الله لعباده جميعا لنيـــل رحمته وبركات غفرانه .

إن الله تبارك وتعالى علم عباده من خلال سورة الواقعة كيفية اعداد أنفسهم إعدادا راقيا عماده التوحيد الذى يثمر لهم الفوز فى حياتهم الدنيا ثم فى حياتهم الاخرى الخالدة .

صورت سورة الواقعة قضاياها بأسلوب يجمع بين ذروة التعبير الأدبى الرفيع والبلاغة العالية مثل ســـور القرآن جميعها فسبحان القائل الواحد الأحد الذى تجلت أنوار وحدانيته فى كلامه الشريف كما تجلت فى مخلوقاته . لقد أكرم الله تعالى عباده بدعوته الربانية التى جعل لها منهجا واضحا وفاض كرمه حين جعل القرآن الكريم كتابا مفتوحا لعباده جميعا فى كل مجال خلقه سبحانه لهم يتأمله باحث الزراعة والاقتصاد والاجتماع والطب والبلاغة ولذلك فعندما رغبت فى دراسة الواقعية كمذهب أدبى يعنى بدراسة الحقائق لم أجد منبعا أستقى منه مفهوم الواقعية فى كل زمان ومكان إلا القرآن الكريم كتاب ربى الواحد الأحد .

فالحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه فقد أكرمنى بالنظر فى كتابه وفاض كرمه سبحانه فيسر لى الكتابة فى سورة الواقعة التى ذكر الله فيها واقعية الأحداث التى ستقع يوم القيامة وجعل لها سبحانه دليلا فى حياتنا الدنيا كما هدى سبحانه فى هذه السورة المباركة عباده الى واقعية تفرده بالخلق جل علاه • وليعلم الانسان أن الذى علمه مفهوم الواقعية وأبعادها فى الدنيا هو الذى أخبره بواقعية أحداث الآخرة سبحانه فحديثه الحق وأخباره الواقع اليقينى •

وأخيرا كما علمنا ربنا سبحانه شكر من يسر على أيديهم العمل أقدم عميق شكرى لرفيق عمرى الذى كان من أعظم آلاء الله على والذى شاركنى فى مناقشة قضايا هـذا البحث أستاذى الفاضل السعيد عبد العزيز رضوان له منى ما دامت لى الحياة الاحترام والتقـدير كما أشكر الأستاذ الجليل حمزة الدمرداش زغلول أستاذ البلاغة بكلية الدراسات الاسلامية والعربية (جامعة الأزهر) على حسن نصائحه •

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » •

صدق الله العظيم

تم بحمد الله وتوفيقه فى ٢٤ صـفر ١٤١١ هـ

١٤ سبتمبر ١٩٩٠ م

وعلى الله قصـد السـبيل ، ، ،

دكتـورة

نادية أحمـد مسـعد محمـد

أســـماء المــراجع والكتـــب

١ ــــ د. أحمد أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة نهضة مصر .

٢ ــــ أحمـــد أمين : فى النقد الأدبى ــ مطبعة لجنة التأليف ــ طبعة ١٩٥٢ م .

٣ ــــ الألوسى : روح المعــانى ــ إحياء التراث ــ بيروت .

٤ ــــ أندرية بواشو : ترجمة خليل الجر ــ الشمس والأرض ــ سلسلة المنشورات العربية .

٥ ــــ أوجين شريدر : ترجمة خليل الجر ــ البيولوجية الانسانية ــ سلسلة المنشورات .

٦ ــــ أبو حيان الأندلسى : البحر المحيط ــ دار الفكر .

٧ ــــ د. ثابت محمــد : الاتجاه الواقعى فى الشعر العربى الحديث فى مصر ــ مكتبة النهضة بمصر .

٨ ــــ جان روستان : ترجمة د. خليل الجر ــ الوراثة الانسانية سلسلة المنشورات العربية .

٩ ــــ د. حمزة الدمرداش زغلول : فى علم المعانى ــ الطبعة الثالثة المطبعة الاسلامية الحديثة ــ الزيتون ــ القاهرة .

١٠ ــــ الرازى : أسماء الله الحسنى ــ منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ــ طبعة ١٩٥٦ .

التفسير الكبير ــ الطبعــة الأولى .

١١ ــــ د. رشاد الطوبى : وبث فيها من كل دابة ــ دار المعارف ــ سلسلة اقرأ .

خلق الانسان من علق ــ دار المعارف ــ سلسلة اقرأ .

١٢ ــ روبرت كاون : ترجمة د. عبد الحافظ حلمى ــ الحياة فى أعماق البحار ــ مؤسسة سجل العرب .

١٣ ــ السيد أحمد الهاشمى : مختار الأحاديث النبوية ــ المكتبة التجـارية .

١٤ ــ سـيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ــ دار الشروق
التصوير الفنى فى القـرآن ــ دار المعارف
فى ظـلال القـرآن ــ دار الشروق

١٥ ــ د. شوقى ضيف ــ سورة الرحمن وقصار السور ــ دار المعارف بمصر .

١٦ ــ الشيرازى : تحقيق عبد القادر أحمد عطا ــ حقائق البعث والنشور ــ دار التراث العربى بمصر .

١٧ ــ د. صلاح فضل : الواقعية فى الابداع الأدبى ــ دار المعارف .

١٨ ــ د. طاهر توفيق : القرآن والاعجاز فى خلق الانسان ــ دار النصر للطباعة ــ القاهرة .

١٩ ــ الطبرسى : مجمع البيان فى تفسير القرآن ــ بيروت .

٢٠ ــ الطـبرى : تفسـير الطبرى ــ دار المعارف ــ بمصر .

٢١ ــ عبد الحليم محمود : ولله الأسماء الحسنى ــ مكتبة الكليات الأزهـرية .

٢٢ ــ د. عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ــ دار الفكر العربى ــ الطبعة الخامسة .

٢٣ ــ د. عز الدين فراج ــ تأملات علمية تنطق بقـدرة الله ــ دار الفكر .

٢٤ ــ د. قاسـم فـؤاد : الدار العربية للنشر والتوزيع ــ الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

٢٥ — القرطبى : الجامع لأحكام القرآن — طبعة ١٩٦٦ — بيروت .

٢٦ — د. محمد أحمد : علم الوراثة — دار المطبوعات الجديدة .

٢٧ — د. محمد جمال الدين حسونه : فسيولوجيا النبات — دار المطبوعات الجديدة .

٢٨ — د. محمد حسن شرشر : لباب المعانى — الطبعة الأولى — ١٩٨٥ م .

٢٩ — د. محمد عبد المنعم خفاجى : دراسات فى الأدب المقارن — دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

٣٠ — محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — دار الريان للتراث .

٣١ — د. محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث — دار نهضة مصر — الفجالة .

٣٢ — فضيلة د. محمد متولى الشعراوى : مشاهد يوم القيامة — مكتبة التراث الاسلامى .

— الغيب — مكتبة التراث الاسلامى .

— القضاء والقدر — مكتبة التراث الاسلامى .

٣٣ — د. محمد محمد : أبو زهو — الحديث والمحدثون — الطبعة الأولى — ١٩٥٨ م .

٣٤ — د. محمد محمود عبد القادر — بيولوجية الايمان — دار الشروق .

٣٥ — د. محمود الربيعى — فى نقد الشعر — دار المعارف بمصر .

٣٦ — د. محمود مهدى — تحفة العروس — الطبعة الخامسة — بيروت .

٣٧ ــ د. مصطفى محمـود : الأحـــلام ــ دار المعارف .

ــ القرآن محاولة لفهم عصرى ــ دار المعارف .

ــ الله ــ دار المعارف .

٣٨ ــ د. منصور حسب النبى ــ الكون والاعجاز العلمى للقرآن ــ دار الفـكر .

٣٩ ــ النووى ــ الأحاديث القدسية ــ مكتبة القرآن .

٤٠ ــ النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ــ تحقيـق ابراهيم عطوة ــ مطبعة الحلبى .

❋ « الحمـد لله رب العـالمين » ❋

فهـرس الموضـوعات

« ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

(صدق الله العظيم)

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٣٨ / ١٩٩١

المطبعـــة الاسلامية الحديثـــة

٤٢ (أ) شـارع دار السـعادة ـــ حلمة يالزيتون

القاهرة ـــ تليفون ٢٤٦٦٩٣٨